

رقم الدرس ٤٣٠

الأربعاء ١٥-٩-١٤٣١ هـ

شرح سنن الترمذي كتاب الجنائز

المُلَقَّاة بِجَامِعِ الْمَلِكِ سُعُود - رَحْمَةُ اللَّهِ - بِجَدَّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُزَيْدٍ الْجَنْبِيِّ الشَّنْقِيطِيِّ
الْمُدَرِّسِ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

وَعُضُو هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

وَمُقَوِّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطَقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّرُوسُ لَمْ تُرَاجَعْ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ - حَفَظَهُ اللَّهُ - .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يَقُولُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ مَنْ قَدَّمَ وَلَدًا].

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَحَدَّثَنَا الْأَنْصَارِيُّ حَدَّثَنَا مَعْنٌ حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: ((لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ)).

الشَّرْحُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَتَمَّانِ الْأَكْمَلَانِ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى سَبِيلِهِ وَتَهَجَّهَ وَاسْتَنَ بِسُنَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ تَرَجَمَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذِهِ التَّرْجُمَةِ وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِعَظِيمٍ مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الْجَزَاءِ الْحَسَنِ لِمَنْ أُبْتُلِيَ بِوَلَدِهِ، وَفَقَدَ الْوَلَدَ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْبَابُ مُتَعَلِّقٌ بِأَحْكَامِ الْجَنَائِزِ نَاسِبٌ أَنْ يَذْكُرَهُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي هَذَا الْكِتَابِ.

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: ((لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ))، هَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الصَّبْرِ وَالِاحْتِسَابِ عِنْدَ فَقْدِ الْوَلَدِ، وَأَنَّ احْتِسَابَ فَقْدِهِمْ يَكُونُ حِجَابًا لَهُ مِنَ النَّارِ فَلَا تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، وَالْقَسَمُ الَّذِي أَقْسَمَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَقْسَمَ بِهِ سُبْحَانَهُ، إِنَّا سَنَرُدُّ عَلَى النَّارِ، فَنَاجٍ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَمُكَرَّدَسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ بَعْدَ اللَّهِ، وَلَا يَظْلَمُ رُبُّكَ أَحَدًا.

فَمَنْ أُبْتُلِيَ بِفَقْدِ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْوَلَدِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ وَرَجَا عِنْدَ اللَّهِ حَسَنَ الثَّوَابِ وَحَسَنَ الْعَاقِبَةِ وَالْمَأَبِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ جَزَاءَهُ: ((أَنَّهُ لَا تَمَسُّهُ النَّارُ)) مَعْنَى أَنَّ هَذَا الْبَلَاءَ يَكُونُ سِتْرًا لَهُ، وَوَقَايَةً لَهُ مِنَ النَّارِ. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الصَّبْرِ، خَاصَّةً فِي الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ، وَأَنَّ الصَّبَرَ يُحْفَظُ الْعَبْدُ بِهِ إِذَا احْتَسَبَهُ عِنْدَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ شُرُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وفي الباب عن عمر، ومعاذ، وكعب بن مالك، وعتبة بن عبد، وأم سليم.
قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وفي الباب عن عمر ومعاذ وكعب بن مالك وعُتْبَةُ بن عبدٍ وأمِّ سليمٍ وجابرٍ وأنسٍ وأبي ذرٍّ وابن مسعودٍ وأبي ثعلبة الأشجعيِّ وابن عَبَّاسٍ وعقبة بن عامرٍ وأبي سعيدٍ وقرّة بن إياسٍ المزنيّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا-.

وأبو ثعلبة له عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حديثٌ واحدٌ، وهو هذا الحديث، وليس هو الْحُشْنِيّ.

قَالَ الإمامُ أبو عيسى -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حديثُ أبي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ قَدَّمَ ثَلَاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ كَانُوا لَهُ حِصْنًا حَصِينًا مِنَ النَّارِ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ، قَالَ: وَاثْنَيْنِ، فَقَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ سَيِّدُ الْقُرَاءِ: قَدَّمْتُ وَاحِدًا، قَالَ: وَوَاحِدًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا ذَاكَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى)).

الشَّحْ:

((مَنْ قَدَّمَ ثَلَاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ)) أي: صغارا دون البلوغ، وَالْحُلُمُ: هو البلوغ.

و((مَنْ قَدَّمَ)): أي مات قبله، فهم فرط له كما سيأتي.

وَالْفَرَطُ: هو السابق، وقَدَّمَهُمْ لا يكون مقدِّمًا للولد إلا إذا احتسبه عند الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا يستلزم أَنَّهُ مُجَرَّدٌ أَنْ تَأْتِيَهُ أو يَأْتِيَهُ الْخَبَرُ بِمَصِيبَتِهِ بولده يصبر ويحتسب، ويثق بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، لأنَّ الصبر عِنْدَ الصدمة الأولى، فيقدِّمهم للقائه الله، ويقدمهم مُحْتَسِبًا الأجر عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

والله -جَلَّ جَلَالُهُ- هو الَّذِي يجبر الكسر، ويعظم الأجر، ويحسن العاقبة والذخر.

((ثَلَاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ)): هذا قيد لما تقدّم، يكون هذا الحديث قيدًا لما تقدّم، إذا قيل يحمل

المُطلق على المُقيّد، وبناءً على ذلك قال بعض العلماء: إِنَّمَا اشترط أن يكونوا صغارا دون الحُلُم ؛ لأنَّهم تتعلّق بهم النفوس أكثر، والمصاب بالصغير الَّذي لم يبلغ الحُلُمَ أعظم من المصاب بالكبير، ولكن هذا لا يخلو من نظر:

إذا كان الإطلاق على إطلاقه، فإنَّه يشمل الكبير والصغير، والمَعْنَى في الصغير كما يحتمله النصُّ أن

الصغير فيه معنى أكثر من غيره، من جهة أنه يشفع، ذلك بأنه لم يصب ذنبًا، ولذلك يرجى في شفاعته أكثر مما يرجى بالكبير الذي خالط الذنوب، وخالط المعاصي، ولكن الصغير أسلم لذلك رواية القيد لها وجه من جهة عظيم مصابها للعبد.

وثانيًا: كون صغير دون الحلم لم يصب ذنبًا، والذي لم يصب ذنبًا أرجى في الشفاعة، وأرجى في قبول شفاعته عند الله -عز وجل-.

وأما بالنسبة لرواية المطلقة، فشاملة للكبير والصغير، فإنه قد يكون مصاب الإنسان بالكبير فاجعًا، خاصة إذا كان بارًا به، أو محسنًا إليه، فيكون المصاب به أبلغ.

وعلى كل حال حديثان: أحدهما مطلق، والآخر مقيّد.

قال أبو ذر: ((قَدَّمْتُ اثْنَيْنِ؟ وَقَالَ: اثْنَيْنِ))، ((قَالَ: وَاثْنَيْنِ)) هذا من كرم الله -عز وجل- ورحمته، وقد سألت المرأة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا، فإنه بين: ((أَنَّهُ مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَفْقِدُ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ، قَالَتْ: وَاثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَاثْنَيْنِ)) فهذا من كرم الله وجوده ورحمته، ونزول الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان مباشرة بعد أن سُئِلَ عن الاثنين، أطلعه الله -عز وجل- على أن الشفاعة والخير المتعلق بفقد الولد، وفلذة الكبد شامل للاثنتين.

سواء قلنا: ثلاثة، أو اثنين، فإنه شامل للذكور والإناث؛ لأن الولد يشمل الذكر والأنثى.

((فَقَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ سَيِّدُ الْقُرَاءِ: قَدَّمْتُ وَاحِدًا، قَالَ: وَوَاحِدًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا ذَاكَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى))، ((فَقَالَ أَبِي)) وهو الصحابي الجليل، سيد القراء، لأنه كان أحفظ الصحابة لكتاب الله -عز وجل-، ولذلك لما ارتج على النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاته، قال: ((أَفِي النَّاسِ أَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَفْتَحَ عَلَيَّ آتِفًا)) فضله الله وشرفه بحفظ القرآن وضبطه وإتقانه، وكان له قصب السبق في ذلك، وعلم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما علمه الله.

قال: ((قَدَّمْتُ وَاحِدًا)) فبين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الفضل يشمل من قدّم واحدًا، وهذا من كرم الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وجوده على عباده، ولكنه قيّد ذلك بالصبر واحتساب الأجر.

وبين أن الصبر يكون عند أول ما يصاب الإنسان؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يكون له ولد يعز عليه ثم يخبر بفقدته، فيصبر ويحتسب الأجر عند الصدمة الأولى، إلا بقوة إيمان، وكمال يقين في الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولا تظهر السرائر، ولا تنكشف الضمائر في الفجائع والقوارع إلا إذا بُوِغَتْ الإنسان بها.

فَإِذَا أُخْبِرَ بِهَا فِي أَوَّلِ مَصَابِهِ فَإِنَّهُ يَرُدُّهَا بِالْإِيمَانِ وَاحْتِسَابِ الْأَجْرِ، وَصَدَقَ الْإِيْقَانُ فِي اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - .

والصبر عند الصدمة الأولى: أي حين ما يصدم الإنسان بالخبر بأوله، أمّا إن جَزَعَ في أوله وتسخط عن القضاء والقدر - العيادُ بالله - وأساء الظن، فهذا لا يشملُه الفضل.

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِيهِ.

الشَّرْحُ:

والأقوى أَنَّ الاستثناءَ لِلاثنين فقط كما هي الرواية الصحيحة، وكما تقدّم في الحديث الذي قبله. لكنهم لم يسألوا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الواحد، وكان بعضهم يقول: على الرجاء أنه سُئِلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((الاثنين، قال: الاثنين))، ولم يسأل عن الواحد، والله أكرم وهو أعزُّ وأحكم

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ وَأَبُو الْخَطَّابِ زَيْدُ بْنُ يَحْيَى الْبَصْرِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ رَبِّهِ بْنُ بَارِقٍ الْحَنْفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا أُمِّي سِمَاكَ بْنَ الْوَلِيدِ الْحَنْفِيَّ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: ((مَنْ كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهِمَا الْجَنَّةَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: وَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ يَا مُوَفَّقَةُ، قَالَتْ: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي، لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي)).

الشَّرْحُ:

الْفَرَطُ: هو السَّابِق، فَرَطُ الْقَوْمِ هو الذي يسبقهم على الماء؛ لكي يستكشف الماء، هو فَرَطُ الْوَارِدِينَ، كَأَن يَكُونُ جَمَاعَةٌ فِي سَفَرٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَرُدُّوا الْمَاءَ، فَيَسْبِقُهُمْ إِلَى الْمَاءِ. **فَالْفَرَطُ:** هو السَّابِق، وهو من باب تسمية الاسم بالمصدر، يستوي فيه الذكر والأنثى، والقليل والكثير، تقول: "فَرَطُ الْقَوْمِ".

وقوله: ((فَرَطَانِ)) أي سابقان، أنه إذا فقد ولديه فقد سبقاه إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وسبقاه إلى لقاء الله - جَلَّ وَعَلَا - فيكوناني شافعَيْنِ له عند الله بإذنه.

فقالت عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: ((فَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: وَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ يَا مُوَفَّقَهُ))، في قوله: ((يَا مُوَفَّقَهُ)) التوفيق نعمة من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، والعبد الموفق هو الذي يُيسِّرُهُ اللهُ لليسرى، فيجعله مسددًا في قوله وعمله، ومن أعظم نعم الله على العبد أن يكون موفقًا في أمر دينه ودنياه وآخرته، ولذلك يسأل العبدُ ربه التوفيق، ويسأله السداد، ويسأله الرشد. فهذا فيه تذكية من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للصديقة بنت الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، - وَرَضِيَ اللهُ عَنْ أَبِيهَا -.

قالت: ((فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَأَنَا فَرَطُ أُمِّي، لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي)) - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، فكل مصاب بعده جَلَّ - بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -:

إِصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَدِ وَادْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

فما من مصيبةٍ أعظم من فقده - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَلِذَلِكَ يتعزى المسلم، فإذا ذكر الموت نزل بأبيه وأمه وصاحبته وأخيه وأحبابه وأصحابه، تذكر أنه نزل بخير خلق الله - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وأن المصاب به يعزى، يكون سلوةً للمؤمنين بكل مصاب، وهو فرط الأمة وهو سابقهم - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، وبشرهم أنه فرطهم على الحوض، وهذا إشارة إلى نوع من التكريم، وإلا فكرامات الله لهذه الأمة ولنبيها - بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - عظيمة جليلة كريمة، كله بفضل الله، فالحمد لله الذي جعلنا من أتباعه:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتَيْهًا فَكِدْتُ بِأَخْصَمِي أَطًا الثُّرَيَّا

دُخُولِي فِي نِدَائِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

فالحمد لله الذي جعلنا من أتباعه، وجعلنا من السائرين على نهجه، نسأله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يثبتنا على سنته وطريقته حتى نلقاه يوم نلقاه والله راضٍ عنا، غير مبدلين ولا خزايا ولا نادمين، ولا مفتونين، برحمته، وهو أرحم الراحمين.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ بَارِقٍ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ.

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الْمُرَابِطِيُّ، أَخْبَرَنَا حَبَّانُ بْنُ هَالِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ رَبِّهِ بْنِ بَارِقٍ، فَذَكَرَ بِنَحْوِهِ، وَسَمَّاكَ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَنْفِيُّ، هُوَ أَبُو زُمَيْلٍ الْحَنْفِيُّ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: ((عَلَى الْحَوْضِ)) فِيهِ إِبْتِهَاتٌ حَوْضُهُ - بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ فِيهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَأَنَّ أُمَّتَهُ سَتَرْدُ عَلَى الْحَوْضِ، وَأَنَّ آيَتَهُ عَدَدُ النُّجُومِ، وَأَنَّهُ أَصْفَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَشْرَفُهُ وَيَشْرَفُ أُمَّتَهُ بِهَذَا الْحَوْضِ، وَسَيَأْتِي مَزِيدٌ بَيَانٍ لَهُ فِي (أَبْوَابِ الْقِيَامَةِ).

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : [بَابُ مَا جَاءَ فِي الشُّهَدَاءِ مِنْهُمْ].

الشَّرْحُ:

الشُّهَدَاءُ: جَمْعُ شَهِيدٍ، وَشَمَّى الشَّهِيدُ شَهِيدًا:

قِيلَ: لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَشْهَدُهُ بِمَعْنَى تَحْضُرُهُ، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ الْأَثَمَةِ كَابِنِ الْأَنْبَارِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَشْهَدُ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَشَاطِدُ مَنْزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، فَإِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ، وَأَرِيدَ قَبْضُ رُوحِهِ رَأَى مَنَازِلَ الْجَنَّةِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ فَلَا يَحْسُ بِالْمِ، وَلَا يَحْسُ بِأَذَى فِي سَكْرَةِ الْمَوْتِ، حَتَّى أَتَاهَا تَكُونُ أَخْفَ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ كَقَرَصَةِ النَّحْلَةِ، فَلَا يَجِدُ مِنْ سَكْرَةِ الْمَوْتِ وَمِنْ شِدَّتِهِ بَلَاءً وَلَا عَنَاءً.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَشْهَدُ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْبَلَاغِ عَلَى رَسُولِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَشْرَفُهُ وَيَكْرُمُهُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ يُشْهَدُ لَهُ بِالْأَمَانِ مِنَ النَّارِ، أَيْ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَشْهَدُ لَهُ أَنَّهُ مُؤَمَّنٌ مِنَ النَّارِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ خَاصَّةً دُونَ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ أَنَّهُ يَخْصُ بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ.

وقيل: غير ذلك، قرابة سبعة أقوال في سبب تسمية الشهيد شهيداً.

والمراد بالشهيد في الأصل: منزله من المنازل العظيمة التي أعدها الله في الجنة، وهي في أعالي الجنة وهذه المنزلة جعلها الله على مراتب:

أعلاها وأسمها: من قاتل في سبيل الله مقبل غير مدبر، صابراً قاصداً وجه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، أي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإذا قاتل على هذا الوجه فهو الشهيد ثم هؤلاء الشهداء الذين يقتلون في أرض المعركة، ويمتتون في أرض المعركة ولا يعيشون بعد المعركة هؤلاء منازلهم متفاوتة:

فمن قتل بشرٍ قتلةٍ وأعظم قتلةٍ كان منزله عند الله أعظم، ومنزلته أرفع -نسأل الله بعزته وجلاله أن يكرمنا بالشهادة في سبيله، وأن يبلّغنا منازل الشهداء-.

ثم الشهداء أنواع، ذكر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث أنهم أكثر من نوع، وأن الشهادة ليست خاصة بالشهادة في سبيل الله من حيث الأصل العام.

أما من حيث الفضل وما ورد من خصوص الكرامات والمنازل والدرجات العُلا: فإنها خاصة بمن قُتل في سبيل الله في قتال الكفار، وليس في قتال المسلمين، فيخرج قتال أهل البغي والمعتدين، فهؤلاء لا يسمون شهداء، ولا يأخذون حكم الشهيد، وإنما الشهيد من قاتل أعداء الله القتال الشرعي المنضبط بضوابطه المعروفة، وسار فيه على تقوى من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ورضوان، وأخلص فيه لوجه الله؛ لقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا))، وليس من وجّه السلاح إلى المسلمين، وقاتل المسلمين وعبث بهم، وآذهم، واستباح دماءهم -والعياذ بالله-، فهذا أبعد ما يكون عن هذا الفضل العظيم، فحرمة المسلم أجل، وأعلى، وأقدس من أن تُمسَّ، وأن تُهان، بل قد عظم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذلك، وأخبر: ((أنه أعظم عند الله من هدم الكعبة))، وأعظم عند الله من زوال الدنيا.

فالشهادة في سبيل الله إذا توفرت فيها شروطها حاز صاحبها الفضل، لكن بشرط:

أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وأن يقاتل مقبل غير مدبر، وأن يقتل في أرض المعركة.

فإن عظم بلاؤه كأن يُجدع، وأن يُمَثَّلَ به، وأن يقرَّ، وأن تقطع أشلاه، وأن تسيل دماؤه، فهذا أعلى منزلة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فهم على مراتب.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- حَدَّثَنَا الْأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، ح، وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ عَنْ مَالِكٍ، عَنْ سُمَيٍّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)).

الشَّرْحُ:

((الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ)): إجمالٌ قبل البيان والتفصيل، وهم من حيث الأصل كرامةٌ من الله لهذه الأمة، أمَّا لا تختصُّ الشَّهادةُ بالقتل في سبيل الله، في الجهاد في سبيل الله لقتال الكفار وأعداء الإسلام والمسلمين، فهذا كرامةٌ من الله لهذه الأمة أَنَّ الشُّهداءَ أكثرُ من نوع، ولا تختصُّ الشَّهادةُ بِمَنْ قُتِلَ كما ذكرنا في الجهاد في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وذكر الحافظُ ابنُ حجرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وغيره من الأئمة أَنَّ الخصالَ أكثرُ من عشرين خصلةً، وذكر أكثرها بأسانيدَ جيدةٍ، وأنَّ فيهم لذيغُ العقرب، وفيهم من وقصته دابَّتُه، وفيهم من هوى من على شاهقٍ، أو من على جبلٍ، وهم أنواعٌ كُثُرٌ، والله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تفضَّلَ على هذه الأمة بأنَّ جعلَ الشَّهادةَ أكثرَ من نوعٍ، ولكنَّ هؤلاء الشُّهداءَ كوصفٍ عامٍ.

أمَّا كوصفٍ خاصٍّ: فإذا أُطلِقَتِ الشَّهادةُ المراد بها: الشَّهادةُ في سبيل الله، وإذا وردت الفضائلُ العظيمةُ والخصائصُ الكريمةُ فهي خاصة بالقتل في سبيل الله.

ولذلك يقول العلماء: الشُّهداءُ لهم حُكْمَانِ:

شهيد الدنيا: الذي يعامل معاملة الشهيد، فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ويظل في ثيابه، كما فَعَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بشهداء أُحُدٍ، هؤلاء شهداء المعركة، ويشترط فيهم: أن يموتوا في المعركة كما قدمنا، وبيننا مسائل الشهيد.

النوع الثاني، وهم شهداء الآخرة: فإنه يجمع جميع الأوصاف وهم شهداء الآخرة في الجنة لهم منازل، وهي منازل الشهداء الذين أكرمهم الله بكرامته، فجعلهم بجوار النبيين والصديقين، فهؤلاء أنواع ومراتب، يشمل من ذكر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا الحديث، وما ذكر في غيره، فهم أنواع كثر، وهذا كله من فضله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على هذه الأمة.

((المطعون)): المطعون هو الذي يموت بالطاعون.

والطاعون: مرض كالخراج يخرج من الجسد، وهو مرض معروف جعله الله رجسًا وعذابًا على مَنْ قَبَلْنَا، فأرسله الله على بني إسرائيل، وأرسله الله -عَزَّ وَجَلَّ- على قوم فرعون، وأرسله الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على أُمَمٍ مِنْ قَبْلِنَا عَذَابًا وَرَجْسًا.

وأما على هذه الأمة: فَإِنَّهُ رَحْمَةٌ، كما أخبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنَّ الطاعون شهادة لهذه الأمة، كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الصحيح: ((الطاعون شهادة لكلِّ مسلمٍ))، فمن مات من المسلمين بالطاعون فهو شهيد.

وذكر بعض المتأخرين أن الطاعون يشمل ما يسمى في زماننا بمرض (الكُولِرا)، وهذا يحتاج إلى تحقيقٍ وتحريٍ، لكنه مرضٌ معروفٌ، وأصاب حتى الصحابة في زمن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وهو المشهور بـ(طاعون عَمَوَاس) سنة ثمانية عشر من الهجرة.

فهذا النوع من البلاء قال بعض العلماء: إِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل الموت بالأسباب المؤلمة، والأمراض الموجعة نوع من الشهادة، ومنها الطاعون؛ لأنه يعظم بلاؤُهُ، وكان عبادة بن الصامت حين أُبْتُلِيَ به -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يقول: (اللَّهُمَّ إِنْ جَعَلْتَ فِيهِ الْخَيْرَ فَاجْعَلْ لَّائِلَ عِبَادَةٍ مِنْهُ أَوْ فِرَ الحَظِّ وَالنَّصِيبِ) فطعن -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بطاعون عَمَوَاس.

((والمبطون)): والمبطون هو الذي يموت بداء البطن.

قيل: الإسهال، وقيل: الاستسقاء، وهذا هو الذي أقرب إلى (الكُولِرا) في بعض أحوالها، وهو الذي يمكن أن يشمل (الكُولِرا) وغيرها إذا كانت فيه هذه الصفة، أَنَّهُ يموت باستطلاق البطن، فتسهل بطنه، ويصيبه الجفاف فيموت.

وكذلك الاستسقاء وهو مرض معروف، داء من الأمراض الذي تصيب البطن.

وهل يشمل المبطون كلَّ من أُبْتُلِيَ بداء البطن، فيشمل الأمراض الخبيثة إذا أصابت جوفه كداء السَّرَطَان ونحوه؟

هذا أمرٌ يَحْتَمِلُهُ النظرُ، هل قوله: ((المبطون)) المراد به: جنس المبطون؟ أم المراد بـ(أَل) في ((المبطون))

العهد، أي المرض المعهود المعروف بداء البطن؟ وجهان:

أَمَّا الذي ذكره العلماء والأئمة فهو الوجه الثاني: أَنَّهُ للمعهود.

وَأَمَّا لَفْظُ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ جِنْسَ الْمَبْطُونِ، فَإِذَا أُخِذَ بِهَذَا الْمَعْنَى فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ مَاتَ بِسَبَبِ دَاءِ الْبَطْنِ، كَأَن تَصْيِيهِ قُرْحَةٌ تَكُونُ سَبَبًا فِي مَوْتِهِ، أَوْ يَصِيْبُهُ نَزِيفٌ دَاخِلِيٌّ فِي بَطْنِهِ فَيَكُونُ سَبَبًا فِي مَوْتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ.

((وَالْغَرَقُ)): والغرق: الذي يموت بالغرق، سواء في بحرٍ، أو نهرٍ، أو بركةٍ، أو خزان ماءٍ، أو غير ذلك، فإذا مات غرقاً فإنه يكون شهيداً، وهو نوع شهادة.

والشهادة بالغرق إذا قُتِلَ في سبيل الله وهو غريق فإنها تكون زيادة فضل؛ لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((أَنَّهُ أَتَى أُمَّ حَرَامٍ بِنْتَ مِلْحَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، وَنَامَ عِنْدَهَا، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ، وَهُوَ يَتَبَسَّمُ، فَسَأَلَتْهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ أَنَا سَاءَ مِنْ أُمَّتِي مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرَةِ أَوْ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرَةِ يَغْزُونَ ثَبَجَ الْبَحْرِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ أَكُونَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فِي الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: أَنْتِ مِنْهُمْ))، فَخَرَجَتْ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فِي زَمَانٍ مُعَاوِيَةَ حَتَّى نَزَلُوا بِبَيْرُوتَ عَلَى الشَّاطِئِ بِالشَّامِ، ثُمَّ نَزَلَتْ، فَوَقَصَتْهَا دَابْثُهَا، فَاذْنَقَتْ عَنْقَهَا، فَمَاتَتْ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْفَضْلِ خَصَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَغَزْوِ الْبَحْرِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ مَاتَ شَهِيدًا فِي غَزْوِ الْبَحْرِ جَمَعَ بَيْنَ الْفَضْلَيْنِ إِذَا كَانَ غَرِيقًا، بَأَنَّ يَضْرِبَ فَيَغْرُقُ، ثُمَّ يَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْمَوْتِ بِالْقَتْلِ فِي الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَبَيْنَ الْغَرَقِ، كَمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَكُونُ حَائِزًا لِلشَّهَادَةِ بِمَرْتَبَةٍ زَائِدَةٍ، فَيَجْتَمِعُ الْوُصْفَانِ: الْغَرَقُ، وَالشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتَكُونُ لَهُ شَهَادَتَانِ، فَالْغَرَقُ نَوْعٌ مِنَ الشَّهَادَةِ. ((وَصَاحِبُ الْهَدْمِ)): أي الذي يسقط عليه بيته، أو يسقط عليه سقف، أو ينهدم عليه البيت كما يقع في الزلازل، ونحوها من الكوارث، فهؤلاء كلهم شهداء إذا كانوا مسلمين، فَإِنَّ مَوْتَهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مَوْتٌ مُؤَلَّمٌ، وَلِذَلِكَ خُصُّوا بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ مَوْتَهُمْ نَوْعًا مِنَ الشَّهَادَةِ.

((وَالْهَدْمُ)): خاص بهدم البيت، هذا هو المحفوظ عند أهل العلم.

وَبَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ يَقِيسُ عَلَيْهِ صَدَامَ السِّيَارَاتِ، وَلَا أَعْرِفُ لِهَذَا أَصْلًا.

لَكِنِ الْمَعْرُوفُ الْهَدْمُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ هُوَ سَقُوطُ الدَّارِ، سَقُوطُ السَّقْفِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْتِ بِالسِّيَارَاتِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَمُوتُ بِالسِّيَارَةِ لَا يُعْتَبَرُ مِنْهَدَمًا، وَلَا فِي حَكْمِ الْمَنْهَدَمِ؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ لَيْسَتْ صُورَةَ هَدْمٍ، الْهَدْمُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَاضِحٌ: أَنَّهُ يَسْقُطُ عَلَيْهِ بَيْتُهُ، أَوْ يَخْرُجُ عَلَيْهِ السَّقْفُ، أَوْ يَقَعُ زَلْزَالٌ

فيسقط عليه البيت، ويموت بسبب ذلك، وفي حكم ذلك ما لو إذا سقط عليه جدار، وأُهدَّ عليه الجدار فمات بسبب ذلك، ونحو ذلك.

((وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)): أي الذي يقتل في سبيل الله، وهو قاتل المعركة.

((فِي سَبِيلِ اللَّهِ)): هنا مقيّد، المراد به المعركة، وهي أن يُقْتَلَ في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله -عزَّ وجلَّ- مقبلاً غير مدبرٍ، يريد وجه الله، وإعلاء كلمته.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَنَسٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَجَابِرِ بْنِ عَتِيكَ، وَخَالِدِ بْنِ عَرْفُطَةَ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، وَأَبِي، وَعَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ-.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ أَسْبَاطٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفُرَشِيُّ الْكُوفِيُّ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو سِنَانٍ الشَّيْبَانِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ السَّيِّعِيِّ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرْدٍ لِحَالِدِ بْنِ عَرْفُطَةَ أَوْ حَالِدٍ لِسُلَيْمَانَ: ((أَمَّا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: نَعَمْ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ فِي هَذَا الْبَابِ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ.

الشَّرْحُ:

هذا يدلُّ على فضل الموت بداء البطن.

((مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ)): والمراد بذلك داء البطن.

وحمله بعضهم حملاً مجازياً فقالوا: هو أن يمتنع عن أكل الحرام، فإذا امتنع عن أكل الحرام فإنه قلَّ أن يجد مالا حلالاً، فيموت بسبب ذلك، وهذا بعيد.

والصَّحِيحُ أن المراد به داء البطن، إمَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْعُمُومِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَهَذَا اللَّفْظُ يَقْوِي: ((مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ)) أي كان مرض البطن سبباً في موته، وإذا أُخِذَ بِهَذَا الْمَعْنَى الْعَامِ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تَقْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْمَوْتِ، أَمْرَاضَ الْبَطْنِ الْمَهْلِكَةِ، كَمَا إِذَا أَصَابَهُ السَّرَطَانُ فِي بَطْنِهِ وَفِي أَمْعَائِهِ، وَهَكَذَا إِذَا أَصَابَتْهُ الْقَرَحَةُ فَأُودِتْ بِحَيَاتِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشَّهَادَةِ إِذَا أُخِذَ بِعُمُومِ دَاءِ الْبَطْنِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَّةِ الْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونَ].

الشَّرْحُ:

ترجم المصنّف -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الترجمة، والحقيقة محلُّها في أبواب الطّبِّ والعلاج، ولكنّه ذكرها؛ لمناسبة كون الطّاعون شهادةً، والسنة الثابتة عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه إذا نزل

الطاعون بأرضٍ أَنَّهُ لَا يَقْدُمُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي دَاخِلِ تِلْكَ الْأَرْضِ، أَوْ الْبَلَدِ الَّتِي أَصَابَهَا الطَّاعُونُ فَلَا يُخْرِجُ مِنْهَا؛ لِأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ مَقْدَمَهُ عَلَى الشَّامِ لَمَّا نَزَلَ بِهِ الطَّاعُونُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: ((أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا))، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ الْأَرْضَ الْمُؤْتَبِوءَةَ، وَأَصَابَهُ الْبَلَاءُ، نَسَبَ الْمَوْتَ إِلَى الْبَلَاءِ، وَجَعَلَ مَوْتَهُ بِسَبَبِ الْقُدُومِ.

وَهَكَذَا إِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ، وَخَرَجَ مِنْهَا وَسَلَّم، يَقُولُ: إِنَّهُ نَجَا بِسَبَبِ خُرُوجِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} فَهُمْ يَخْرُجُونَ يَظُنُّونَ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ الَّذِي يَنْجِيهِمْ، وَهَذَا قَادِحٌ فِي الْإِعْتِقَادِ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ فِي مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ إِذَا نَزَلَ بِمَوْضِعٍ لَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ، وَهِيَ سَنَةٌ صَحِيحَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ، شَرِيطَةً: أَنْ لَا يَعْظُمَ السَّبَبُ كَمَا ذَكَرْنَا، فَيُظَنُّ أَنَّهُ مُؤَثِّرٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَائِدَتُهُ: أَنَّهُ إِذَا مَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْخُرُوجِ، أَمِنَ انْتِشَارَ الْبَلَاءِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَهَذَا مَا يَعْرِفُ بِ(عِلْمِ الْوَبَاءِ)، فَهَذَا مِنْ إِعْجَازِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا ثَبَتَتْ بِهِ السَّنَةُ.

وَقَوْلُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لَا عُدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ)) إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ يَظُنُّ أَنَّ الْعُدُوَّ تَضُرُّ بِنَفْسِهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَلِذَلِكَ قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((فِرٌّ مِنَ الْمَجْدُومِ فَرَارِكٌ مِنَ الْأَسَدِ))، فَاتَّبَعَتِ الْعُدُوَّ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ مَا كَانَتْ تَعْتَقِدُهُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ أَنَّ الْعُدُوَّ مُؤَثِّرَةٌ بِنَفْسِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟!))، أَيُّ أَهْمَ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الْبَلَاءَ سَبَبُهُ الْعُدُوَّ، وَأَنَّ الْعُدُوَّ هِيَ الَّتِي تَنْقُلُ الْبَلَاءَ، فَكَذَّبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَذَّبَ الشَّرْعُ هَذَا، بِدَلِيلٍ: أَنَّ أَوَّلَ الْإِبْلِ حِينَمَا أَصَابَهُ الْجَرَبُ مِنَ الَّذِي أَعْدَاهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ هُوَ اللَّهُ، وَأَنَّ الْعُدُوَّ لَا تَأْثِيرَ لَهَا، وَإِنَّمَا هِيَ سَبَبٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي ظَاهِرِهَا، وَالْمُتَّفِقَةِ فِي مَضْمُونِهَا وَمَعَانِيهَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَ الطَّاعُونَ فَقَالَ: ((بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا)).

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَفِي الْبَابِ عَنْ سَعْدٍ وَحُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَجَابِرٍ وَعَائِشَةَ.
قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدِيثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

((بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)): هذه هي الأخبار، وليس هذا من مليون سنة، أو سبع مئة مليون سنة، والأمور التي لا يعلمها إلا علام الغيوب، هذا هو العلم ما مات -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلا وقد علم الله هذه الأمة ما يتعلق بدينها ودنياها وآخرتها.

((بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)): فهو عذاب لِمَنْ قَبْلَنَا، وَرَحْمَةٌ بِنَا وَهَذَا يعتبر من تفضيل هذه الأمة على غيرها، أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مع كون هذا الأمر عذاباً أُرْسِلَهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا وَرَجَسًا عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، جعله رَحْمَةً لَنَا.

فهذا يذكره العلماء في الأمور التي فضلت بها هذه الأمة، وخصت بها هذه الأمة على من قبلها، فهذا مما فضل الله به هذه الأمة؛ لِأَنَّهَا أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ}.

((إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا)): كما ذكرنا؛ لِأَنَّ يَظُنُّ أَنَّ الْعُدُوَّ مُؤَثَّرَةٌ بِنَفْسِهَا، وَهَذَا مَوْجُودٌ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ -نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ- خَاصَّةً ضِعَافَ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ يَغْلُونَ فِي الْأَسْبَابِ، وَيَأْخُذُونَ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ وَكَأَنَّهَا قَاطِعَةٌ، وَالْعَدْلُ وَالْوَسْطُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَلْغِي السَّبَبَ، وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا اللَّهَ بِأَخْذِ الْأَسْبَابِ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَتَدَاوَى، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي السَّنَنِ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ))، فَأَمَرْنَا بِالْأَخْذِ بِالسَّبَبِ، فَنَحْنُ وَسَطٌ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّنْفِيطِ.

منهم مَنْ يَقُولُ: اِثْرُكَ السَّبَبِ، وَلَا تَتَدَاوَى وَلَا تَتَعَالَجُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: السَّبَبُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَبِيبٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ دَوَاءٌ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَوَاءٌ وَعِلَاجٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ نَجَاةٌ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ إِنَّا نَقُولُ: اذْهَبْ إِلَى الطَّبِيبِ، وَتَدَاوَى عَبْدَ اللَّهِ، وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ الطَّبِيبَ لَا يَغْنِي لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ: {وَالِيهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسَبِّبُ الْأَسْبَابِ، هُوَ الَّذِي يَسَبِّبُ الْأَسْبَابَ، وَلَوْلَا تَأْثِيرُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَوْلَا قُدْرَةُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَا أَثَرُ السَّبَبُ:

فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ

فَالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بَعِزَّتْهُ وَقُدْرَتُهُ يَخَالِفُ الْأَشْيَاءَ، وَيَجْعَلُهَا مُخْتَلِفَةً؛ لِأَجْلِ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ وَأَنَّهُ قَهَرَ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ وَكُلَّ شَيْءٍ: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، فَالدَّاءُ بِأَمْرِهِ، وَالدَّوَاءُ بِأَمْرِهِ، وَالشِّفَاءُ بِيَدِهِ، قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ))، فَالشِّفَاءُ مِنَ اللَّهِ، وَالدَّوَاءُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ، قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً))، وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَتْ الظُّوَاهِرُ الَّتِي أَوْجَدَهَا اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّ الْأَطْبَاءَ يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ، وَيَعْرِفُونَ عِلَاجَهَا، أَعْجَزَهُمُ اللَّهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرَاضِ، فَأَوْقَفَهُمْ حِيَارَى، وَكَبَّلَ أَيْدِيَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقْدِمَ أَمْرًا آخَرَ اللَّهُ، وَلَا أَنْ يُؤَخِّرَ أَمْرًا قَدِمَهُ اللَّهُ؛ لَكِي يَعْلَمَ الْعِبَادُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وهذا من دلائل التوحيد: (إيجاد الشيء المختلف)، فَإِنَّكَ تَجِدُ الشَّيْءَ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَضْطَرُّ، فَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِذَاتِهِ، فَمَثَلًا تَجِدُ الطَّبِيبَ يَدَاوِي عَشْرَاتِ الْأُلُوفِ فَيُشْفُونَ، ثُمَّ يَأْتِي بِمَرْضَى يُمْكِنُ بِالْأُلُوفِ فَيُعْجِزُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِحَوْلِهِ وَلَا قُوَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ لَشَفَى الْجَمِيعَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ لَمَا انْتَفَعَ الْجَمِيعُ، وَلَكِنْ اللَّهُ جَعَلَ هَذَا الْاِخْتِلَافَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَنَّهُ جَعَلَ الْاِخْتِلَافَ دَلِيلًا عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ؛ لَكِي يَعْلَمَ أَنَّ هُنَاكَ إِلَهًا وَاحِدًا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَفَرِّدُ، الْقَادِرُ، الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، فَالْأَسْبَابُ لَا تَتَوَثَّرُ بِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا تَتَوَثَّرُ بِرَبِّهَا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: [بَاب مَنْ جَاءَ فِيمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ].

الشرح:

تَقَدَّمَ معنا أَنَّ العبدَ المؤمنَ إذا احتَضِرَ بَشَرَتَهُ الملائكةُ بما عند الله من المثوبة، فأحَبَّ لقاءَ الله واشتاق إلى لقاء الله، فيحُبُّ الله لقاءَهُ.

وَأَمَّا العبدُ الفاجرُ الكافرُ فَإِنَّهُ إذا احتَضِرَ نزلت عليه الملائكةُ، فبَشَرَتَهُ بما عند الله من العقوبة، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءَهُ.

وهذا البابُ متعلِّقٌ بأحكام الجنائز؛ لأنَّه يُبيِّنُ أحوال الموتى، وأنَّ العبادَ كُلَّهُم منقسمون على فريقين لا ثالث لهما: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}، وهذا كُلُّهُ يظهرُ إذا دَنَتْ للعبدِ ساعَتُهُ، وحانَت قِيامَتُهُ، فَإِنَّهُ عندها يبشِّرُ بما عند الله من المثوبة إن كان صالحًا، وبما عند الله من العقوبة إن كان طالحًا، ما ظلم ربُّكَ الناسَ شيئًا، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون، ترى الفريقين:

فريق السُّعَداءِ: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ} * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}.

وَأَمَّا الفَجْرَةُ والفسقَةُ فقد بَيَّنَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أحوالَهُم: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}. هذا هو حال الناس: إمَّا سعداء، وإمَّا أشقياء، فليس هناك فريق ثالث، {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}، فعند الموت ينقسمُ الناسُ إلى هاتين البشارَتَيْنِ، لا ثالث لهما:

إمَّا أَنْ يبشِّرَ العبدُ بما عند الله من المثوبة -جعلنا الله وإياكم ذَليكَ الرجلَ-، وأولى الناسَ بالبشارة وأكملهم بشارَةً مَنْ كان مستقيمًا على طاعة الله، ملتزمًا بِهَا، سائرًا على نهجها، مَحَبًّا لما يحبه الله ويرضاه، فتأتيه البشارة على أكمل الوجوه وأتمها.

ولذلِكَ ترى أهلَ السَّعادة من الصالحين والأخيار والمتقين والعلماء العاملين تجد أحوالهم عند الموت عجيبة، فتجدهم في سرور، وتجد وجوههم مشرقة، ونفوسهم منشرحة، وكلماتهم كأثما ضياء من النور، كل هذا بفضل الله -عَزَّ وَجَلَّ- وتثبيتته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فيختم الله لهم بخاتمة السعداء.

وَأَمَّا أَهْلُ الْعَصِيَانِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى اللَّهِ وَالْكَفْرِ وَالْفَجْرِ فَتَجِدُهُمْ بِأَسْوَأِ الْأَحْوَالِ وَشَرِّهَا - نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِزْيِ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ نَرُدَّ مَرَدًّا مَخْزِيًّا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُجِيرَنَا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَسُوءِ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُقْدَامٍ أَبُو الْأَشْعَثِ الْعِجْلِيُّ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)).
قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي مُوسَى وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-.
قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

تَقَدَّمَ مَعَنَا شَرْحُ هَذَا الْحَدِيثِ وَمَعَانِيهِ.

قال -رحمه الله-: حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ قَالَ: وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا ذَكَرَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ! قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)).

قال الإمام أبو عيسى -رحمه الله تعالى-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

هذا الحديث فيه زيادة قول أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: ((أَوْ مِنْ كَرَاهِيَةِ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: لَيْسَ ذَلِكَ)) أي ليس الأمر كما ذكرت، فليس الأمر محبة الموت وكراهية الموت، وإنما الأمر يتعلّق بما يكون للإنسان من أحوال عند نزاع روحه، فإنّه إذا دنت ساعته، نزلت عليه ملائكة: إِنْ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا كَمَا ذَكَرْنَا، وَجَلَسُوا مِنْهُ، وَنَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ بِكَفَنِ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَبْشُرُ. وهكذا إذا كان كافراً نزلت عليهم ملائكة معهم كفناً من أكفان النار، ويجلسون منه مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَبْشُرُ بالعقوبة والمثوبة.

وهذا كله ثابتٌ في حديث البراء بن عازب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في تفصيل صفة نزاع الروح.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ].

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ وَشَرِيكٌ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ((أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)).

الشرح:

هذا البابُ نَبَّهَ به المصنّف -رَحِمَهُ اللَّهُ- على حرمة قتل الإنسان لنفسه فينتحر، فلا يجوز الانتحار. والأصل فيه: ما ثبت في الصحيح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((من تحسّى سُمًّا فهو في نار جهنم يتحسّاه، خالدًا مخلدًا فيها، ومن طعن نفسه بحديدة، فمات، فهو في نار جهنم يجمّأها، خالدًا مخلدًا فيها، ومن صعد إلى شاهقٍ فتردّى منه، فمات فهو في نار جهنم يتردّى من شاهقٍ، خالدًا مخلدًا فيها))، والحديث في الصحيح.

وقد أجمع العلماء على حرمة قتل الإنسان لنفسه، فإذا قتل نفسه بالسكين، أو بالحديدة، أو رمى نفسه من شاهق، أو فجر نفسه ولو كان بغرض يظنه صحيحًا، فهذا كله من الانتحار المحرم، الذي فيه الوعيد الشديد، وليس هناك أي دليل يدل على استثناء حالة في الانتحار أبدًا. وأمّا ما يسمى الآن بـ(التفجير) أَنَّهُ ينتحر أَنَّ هذا يعتبر من الشهادة في سبيل الله فليس بصحيح؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دلت السنة الصحيحة عنه أَنَّهُ لا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه، والله تعالى يقول: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} فهي نصوصٌ صريحةٌ في الكتاب والسنة.

وأمّا مسألة ما يقال: إِنَّ البراءَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: ((أَحْمِلُونِي عَلَى الْعَدُوِّ)) أَنَّهُ فتح الثغرة يوم اليمامة فهذا من الجهل في التفريق ما بين: القتل بالمباشرة، والقتل بالسببية.

فإنَّ البراءَ تعاطى السبب، ولكنه لم يباشِر قتل نفسه، وفرقٌ بين مباشرة قتل النفس وهو الانتحار المحرّم بنصوص الكتاب والسنة، وبين تعاطي السببية المأذون بها شرعًا، وهي الحمل على العدو؛ لأنَّ الحمل على العدو سببٌ في القتل.

والسببية تنقسم إلى قسمين: سببية مفضية إلى الزهوق، وهي الحمل على العدو، وسببية دون ذلك. وهذا تفصيله تكلم عليه العلماء في ضابط القتل العمد في الفرق بين قتل المباشرة، وقتل السببية، في إثبات صفة العمدية في القتل، وليس هناك لا في نصوص العلماء، ولا في نصوص الأئمة من أذن للشخص أن يقتل نفساً ولو كان في الجهاد بدعوى أنه يريد قتل العدو، فإنَّ الإنسان إذا حمل على العشرة أو العشرين، قالوا: هذا مثل الذي يفجر نفسه، وهذا خطأ؛ لأنه إذا حمل على العشرة، أو دخل بين العدو وهم أكثر عدداً، فالذي قتله وباشر القتل هو العدو، وإنما هو تعاطى السبب، ولم يفرقوا بين تعاطى السبب وبين المباشرة، وهناك فرق بين القتل بالمباشرة والقتل بالسببية.

لا يجوز لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقتل نفسه بأي داع كان، ولو أجاز الله للإنسان قتل نفسه لأجاز له أن يقتلها عند شدة البلاء والمرض والسقم الذي يؤلمه ويزعجه ويقلقه، ومع ذلك حرم الله عليه ذلك، وإذا فعل ذلك فإنه بالوعيد الشديد.

ومن هنا أجمع العلماء -رحمهم الله- على تحريم الانتحار، وأنه لا يجوز، وأنَّ النفس أمانة لا يجوز للإنسان أن يقتلها بمباشرة منه للقتل.

وأما إذا تعاطى السببية فيفصل في أحوالها، وتعاطى كل حالة حكم على الأصل الذي قرره العلماء وبينوه.

فالانتحار محرَّم في كتاب الله، وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-:

وقد قال الله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}.

وقال سبحانه: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

وقال -عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتقدم: ((مَنْ تَحَسَّى سِمْماً فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَحَسَّاهُ خَالِداً مَخْلُداً فيه))، ومن المعلوم أنَّ تحسِّي السمِّ كان معروفاً في أيام النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقبل أيام النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يتحسسون السمِّ لكرهية الدنيا، ويتحسسون السمِّ خوفاً من العدو.

وكان بعض الملوك والعظماء إذا خشي من عدوه يضع السمِّ في خاتمه، فإذا خشي من أن يظفر به العدو ليأخذ أسراراً، أو غير ذلك، تحسَّى السمِّ حتى لا يصل إليه، ومع ذلك عَمَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحكم، ولم يستثن منه شيئاً، فدلَّ على أنَّ التحريم عامٌّ، ولا يجوز لأحد أن يخصَّص بدون مخصَّص.

وَأَمَّا التَّأْوِيلَاتُ وَالاجْتِهَادَاتُ: فَإِنَّ الْأَصْلَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا اجْتِهَادَ مَعَ النَّصِّ، فَالنَّصُّ صَرِيحٌ فِي تَحْرِيمِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْقَتْلِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ مَبَاشَرَةً.

وهذا الذي ينبغي أن ينتبه له المسلم، فإذا وقف بين يدي الله، وسأله الله عن تحريم الانتحار بعمومه، قال: (يَا رَبِّ أَتَانَا فِي كِتَابِكَ وَسَنَةَ نَبِيِّكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّكَ حَرَمْتَهُ).

وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ بِالتَّأْوِيلِ، وَأَخَذَ بِمَنْةٍ وَيَسْرَةٍ: فَإِنَّهُ سَيَلْقَى اللَّهَ بِتَبَعَاتِ اجْتِهَادِهِ فِي مَقَابِلِ نَصٍّ، حَيْثُ لَمْ يَأْذَنَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، كَمَا هُوَ مَقَرَّرٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَالْأُئِمَّةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُ الرَّأْيِ فِي مَقَابِلِ النَّصِّ، وَهُوَ الرَّأْيُ الْمَذْمُومُ، وَسَمَّاهُ عُلَمَاءُ الْأَصُولِ فِي الْأَقْيَسَةِ: (فَسَادِ الْعِتَابِ)، وَهُوَ أَحَدُ الْقَوَادِحِ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ: "أَنْ يَجْتَهِدَ الْإِنْسَانُ فِي مَقَابِلِ النَّصِّ".

النَّصُّ صَرِيحٌ، نَصٌّ عَامٌّ فِي الْكِتَابِ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، وَكَذَلِكَ فِي السُّنَّةِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَعْوَلُ، وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَلْتَزِمَهُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَإِنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْهِ الْإِمَامُ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُصَلِّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى قَاتِلِ نَفْسِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ لَا يَحْكُمُ بِكُفْرِهِ، إِلَّا إِذَا اسْتَحَلَّ عَلَى وَجْهِهِ يَوْجِبُ التَّكْفِيرَ.

وَأَمَّا مَنْ حَيْثُ الْأَصْلُ فَإِنَّ قَاتِلَ نَفْسِهِ يَعْتَبَرُ مَرْتَكِبًا لِكَبِيرَةٍ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ: إِنْ عَذَّبَهُ اللَّهُ فَبَعْدَ، وَإِنْ عَفَا عَنْهُ فَبِفَضْلِهِ.

فَقَاتِلُ النَّفْسِ يُصَلِّي عَلَيْهِ عَمُومُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَيِّتُ مَنْعٍ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْعَامُّ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَمَّا امْتَنَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَمْنَعُ أَهْلَ الْفَضْلِ كَالصَّالِحِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَنَحْوَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَحَلُّ نَظَرٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - امْتَنَعَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَمْنَعْ بَقِيَّةَ الصَّحَابَةِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَفِيهِمْ أَفْضَلُهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَمْتَنَعُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ الْإِمَامُ.

وهذا ما يسميه العلماء من امتناع الإمام زجرًا للغير؛ لِأَنَّ امْتِنَاعَ الْإِمَامِ هُنَا سَبَبُهُ أَنْ يَزْجَرَ الْغَيْرَ عَنْ فِعْلِهِ، وَهَذَا يَشْرَعُ، ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّهُ يَشْرَعُ فِي أَحْوَالٍ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ مَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ فُرُوعِ الْفَقْهِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَاحْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُصَلِّي عَلَى كُلِّ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقَبْلَةِ، وَعَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَإِسْحَاقَ.

وَقَالَ أَحْمَدُ: لَا يُصَلِّي الْإِمَامُ عَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ غَيْرُ الْإِمَامِ.

الشرح:

(لَا يُصَلِّي الْإِمَامُ عَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ غَيْرُ الْإِمَامِ): وهذا هو العدل، الإمام أحمد تمسك بظاهر هذه السنة، أن الإمام لا يصلي زجراً لغيره عن فعله، وهذا ما يسمى بـ(التعزير)، التعزير يأتي بصور: ومنها هذه الصورة، هناك تعزير بالمال، وهناك تعزير بالدنيا، وهناك تعزير بالدين، فهذا من التعزير بالدين أن لا يصلي عليه.

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْمَدْيُونِ].

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غِيلَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ: ((أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُتِيَ

بِرَجُلٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا)).

الشرح:

ترجم المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - بهذه الترجمة والتي تتعلق بأحكام الصلاة على الجنائز، ومنهم المديون، وهو الذي يموت وعليه دين.

وكان في أول الإسلام إذا مات الإنسان وعليه دين، سأل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هل ترك وفاء؟

أي هل ترك شيئاً يسدّد به الدين الذي عليه؟ فإن قالوا: نعم، صلى عليه، وإن قالوا: لا، قال: ((صلُّوا

على صاحبكم)).

وهو مثلُ المسألة التي تقدّمت معنا، كان يمتنعُ زجراً للناس عن الدين، ثم إنّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نسخ هذا الحكم، فقال: ((مَنْ تَرَكَ دِينًا فَلِيَّ وَعَلَيَّ))، وصار يصلي -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- على المديون، وغير المديون.

والدّينُ أمره عظيمٌ، فهو همُّ الليل، وذُلُّ النهار، وبيّنت السنة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّ المديونَ مرهونٌ بدينه، قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مَعْلُوقَةٌ بِدِينِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ)). قال بعضُ العلماء: إنه يجبسُ عن النعيم حتى يسدّد عنه الدين.

وقيل: غير ذلك، وهذا أمرٌ غيبيُّ الله أعلم به لم يرد تفصيله، لكنه ورد أنَّ نفسه معلقةٌ بدينه، ومرهونةٌ بدينه.

والرهنُّ: هو الحبسُ، والنفسُ المرهونةُ: أي المحبوسة.

وهذا يدلُّ على أنّه ينبغي للإنسان أن يحرصَ على سداد الديون.

ثم الواجبُ عليه إذا كان عليه دينٌ أن يحتاط في الحقوق التي عليه، فيكتبها في وصيته.

ولا يجوزُ له أن يموتَ وعليه دينٌ، ولم يكتب وصيته؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما تقدّم معنا قال في حديث ابن عمر في الصحيح عنه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: ((مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ وَلَهُ شَيْءٌ يَرِيدُ أَنْ يُوَصِّيَ بِهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ))، فهذا يدلُّ على أنه لا يجوز التفريط في حقوق الناس.

وقد بيّن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنْ مِنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ دَيْنًا يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ دَيْنًا يَرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))، فالذي يستدينُ من الناس على قسمين: قسمٌ منهم يأخذ الدين، وفي نيّته أن يسدّد، وبمجرد أن يتيسّر له يسدّد.

فهذا مرحومٌ؛ لقوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث الصحيح: ((رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً سَمَحًا إِذَا قَضَى، سَمَحًا إِذَا اقْتَضَى))، ومن السّماحة في القضاء في الدّين أنّه إذا وجد المال قبل الأجل يسدّد، فهذا تصيبه الرّحمة من الله -عَزَّ وَجَلَّ- بدعوة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إذا كان خبراً بمعنى الإنشاء. وأمّا إذا كان خبراً: ((رَحِمَ اللَّهُ)) أي أنّ الله سيرحمه، فلا إشكال.

وأما من أخذ أموال الناس، وهو النوع الثاني، الذي يأخذ من هذا وهذا، وليس في نيّته أن يسدّد، فهذا بشرٌّ عظيمٌ، وبلاءٌ وخيمٌ، ويعاقبُ على ذلك أشدَّ العقوبة؛ لأنّه تجبّسُ نفسه، ويوم القيامة يؤخّد من حسناته على قدر ما ظلم الناس في أموالهم.

وَأَمَّا مَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ سَدَادَهَا، وَاسْتَدَانَ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَسُدَّ فَلَا بَأْسَ، قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: ((مَا تَرَكْتُ الدِّينَ مِنْذُ أَنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ))، قَالُوا: ((أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ)) أَيُّ أَنَّ اللَّهَ يُوَفِّقُهُ لِلْسَّدَادِ. وَقِيلَ: ((أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ)) يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ مَاتَ الَّذِي نَيْتَهُ أَنْ يَسُدَّ لَوْ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ السَّدَادُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسُدُّ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ: ((مَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ))، أَيُّ كَانَتْ نَيْتُهُ صَالِحَةً أَنَّهُ سَيَسُدُّ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَالْإِنْسَانُ لَا يَسْتَدِينُ، إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ حَاجَةً إِلَى الدِّينِ، وَالَّذِينَ لَيْسَ بَعِيْبٌ وَلَا مَعْرَّةٌ، وَلِذَلِكَ: ((تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَدَرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي صَاعِينَ مِنْ شَعِيرٍ))، الَّذِينَ لَيْسَ بَمَعْرَةٍ إِذَا كَانَ لِسَبَبٍ، وَكَانَ لِأَمْرٍ يَدْعُو إِلَيْهِ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: هُوَ عَلِيٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((بِالْوَفَاءِ؟)) قَالَ: ((بِالْوَفَاءِ))، فَصَلَّى عَلَيْهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَفِي الْبَابِ عَنْ جَابِرٍ وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَأَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيْسَى: حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ قَالَ: ((كَمْ دَيْنُهُ؟ قَالَ: دَيْنَانِ، قَالَ: هَلْ تَرَكَ وَفَاءً؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: صَلُّوا عَلَيَّ صَاحِبَكُمْ))، فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ بْنُ بَلَدَمَةَ، أَوْ بَلَدَمَةُ الْأَنْصَارِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فَارْسَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((هُمَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ)).

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَةِ الْكَفَالَةِ عَلَى الدِّينِ لِلْمَيِّتِ، وَمِزْجُ الْجُمْهُورِ صَحَّةَ ذَلِكَ.

وَمَنْعُهَا الْإِمَامَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي الْمَيِّتِ الْمَفْلَسِ، أَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ تَفْلِيْسُهُ ثُمَّ مَاتَ لَمْ يَكْفَلْ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَكْفَلُ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَعَامَلَاتِ الْمَالِيَةِ.

قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - : حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ مَكْتُومُ بْنُ الْعَبَّاسِ التِّرْمِذِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى عَلَيْهِ الدِّينُ فَيَقُولُ: هَلْ تَرَكَ لِدِينِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟ فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلَّا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ، قَامَ فَقَالَ: أَنَا أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوفِّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَتَرَكَ دِينًا عَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لَوَرَثَتِهِ)).

قال الإمام أبو عيسى - رَحِمَهُ اللهُ - : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ وَغَيْرُهُ وَاحِدٌ عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ نَحْوَ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَالِحٍ.

الشَّرْحُ:

هذا يدلُّ على أنَّه إذا ترك الميت وفاءً ينبغي أن يبادر بسداد ديونه، والناسُ في هذا الزمان ضيَّعوا هذا الحقَّ العظيم، وتساهلوا حتى بعض طلبة العلم - أَصْلَحَهُمُ اللهُ - في الفتوى، لا يجوزُ للورثة أن يأخذوا من مال أبيهم، ولا من مورثهم شيئاً، إلا بعد سداد الديون؛ لأنَّ الله جعل قسمة التركة بعد الدَّين والوصية، فقال: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}، وقال في الآية الأخرى: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}، وقال في الثالثة: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ}.

فليس للورثة حقٌّ في المال إلا بعد سداد ديون الميت، وبعد إنفاذ الوصايا، وما يفعله بعض الورثة أتهم يأخذون مال الميت، ويتنفعون به، ويقسمونه قبل سداد دينه، هذا عقوقٌ للوالدين، وظلمٌ للميت، وظلمٌ الأب والأم في هذا أعظم من ظلم الغير، ليس للورثة حقٌّ، وإذا كان له عمارةٌ وعليه دينٌ تُباع العمارةُ ويُسدَّد دينه، وأمَّا أن يبقى الورثة في عمارته ومزرعته، ويتوسَّعون في أمواله، ونفسه مرهونةٌ ومعلَّقةٌ بدينه، فهذا من الظلم، وينبغي تنبيهُ الناس في الخطب وبيان ذلك، والإعذار إلى الله؛ لأنَّ هذا فيه ظلمٌ لأموات المسلمين، وقطيعةٌ للرحم، وعقوقٌ للوالدين، فهذا مما يؤدي به الورثة مورثهم، فلعنةُ الله على الدنيا إذا كانت موجبةً لغضب الله، لا خيرَ فيها، فهذا من لعناتها وشؤمها وبلائها أن تتعلَّقَ بها النفسُ على وجهٍ يوجبُ وقوعَ صاحبه في العقوق، أو القطيعة الموجبة للعنة.

الدنيا أحقرُّ أن تحوَّلَ بين العبد وبين الإحسان لوالديه، وهي أحقرُّ من أن تحوَّلَ بينه وبين طلب

مرضاة الله في برِّ الوالدين لو كان متصدِّقاً، فكيف إذا كان حقّاً للوالدين، هذا من الأمر الذي ضيَّعه الكثيرُ.

وللأسف أنَّ البعضَ إذا قيل له: (توفي أبونا، وترك لنا عمارةً، وعليه ديونٌ)، يقول لهم: (ابقوا في العمارة، وسدِّدوا دينَ أبيكم)، بأيِّ حقٍّ؟! هذه العمارةُ ملكٌ للميت، وينبغي أن يُسدَّدَ دينُ الميت، وينبغي أن يُنبَّهَ الناسُ على هذا حقِّ الميت في ماله، ينبغي أن يبادرَ، وأن يخلصَ الناسَ، هذا فيه ظلمٌ للميت، وظلمٌ لأصحاب الديون؛ لأنَّ هذا المالَ مستحقٌّ لأصحاب الديون، فبأيِّ حقٍّ يمنعه الورثةُ أن يصلَ إلى حقه؟! هذا من الظلم، فتكون فيه عقوقٌ، وقطيعَةٌ رحمٍ من جهة بالنسبة للميت، ويكون فيه ظلمٌ لأصحاب الحقوق؛ لأنَّهم عَطَّلُوا عن حقوقهم، وليس هذا من الوفاء، بل إنَّ أصحابَ الديون لهم فضلٌ على الميت، فينبغي أن يُردَّ الفضلُ بالفضل، ولا يُردُّ بالإساءة، هذا هو الذي ينبغي أن يُنبَّهَ عليه، أنَّ سدادَ دين الميت مقدَّمٌ على حقِّ الورثة.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ].

الشَّرح:

ترجم المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الترجمة والتي تتعلق بعذاب القبر، وسيأتي -إن شاء الله- في (أبواب الفتن) الأحاديثُ المتعلقةُ بأمور الآخرة، ولكن المصنِّفَ عَجَّلَ بشيءٍ له مساسٌ بكتاب الجنائز، وإلا فمسائلُ عذاب القبر من مسائل العقيدة، مباحثُها في كتاب الإيمان والتوحيد. فيجبُ على المؤمن أن يؤمنَ بعذاب القبر، وأنَّ العبدَ إذا توفي وقبضت روحه، ثم غسِّلَ وكفَّنَ وصليَّ عليه، فَإِنَّهُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ: إمَّا أن يكون له روضة من رياض الجنة، أو يكون له حفرة من حفر النار.

وقد دلَّت الأدلَّةُ في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على إثبات عذاب القبر: قال تعالى: {وَمَنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، فالبرزخ: هو الانتقال ما بين الحياة الدنيا وحياة الآخرة بالبعث.

وقال تعالى: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}، سَمِعَ أعرابيٌّ قارئاً يقرأ هذه الآية فقال: (زاروها، إنَّهم عن قريبٍ

يرتحلون منها)، فدلَّ على أنَّ القبرَ مَعْبَرٌ، وليس بِمَقَرٍّ، وَلِذَلِكَ من الخطأ قول بعضهم: (إلى المصيرِ الأخير، وإلى المَثْوَى الأخير)، فهذا ليس بالمَثْوَى الأخير، المَثْوَى الأخير: هو المستقر، إمَّا إلى جنة، وإمَّا إلى نار، هذا هو المَثْوَى الأخير.

وَأَمَّا الْقَبْرُ: فَإِنَّهُ مَعْبَرٌ، وليس بِمَقَرٍّ، وَلِذَلِكَ ثبتت النصوصُ في كتاب الله بإثبات عذاب القبر كما في قوله سبحانه عن آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، فأثبت الله عذاب القبر، وبين أنَّهم يعذبون ويعرضون على النار غُدُوًّا وعَشِيًّا، وهو نوع عذاب.

وكذلك أيضا قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}، فجعل بمجرد قبض أنَّهم يصيرون إلى العذاب بكفرهم بالله -عَزَّ وَجَلَّ- واعتدائهم لحدوده، فهذا يثبت عذاب القبر.

وقال بعض العلماء: بل إنَّ هذه الآية هي أقوى الآيات في إثبات عذاب القبر.

وَأَمَّا بِالتَّسْبِيبِ لِلسُّنَّةِ: فقد تواردت الأحاديث والأخبارُ عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّ عذابَ القبر ثابتٌ، وهو ليس خاصًّا بهذه الأمة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: ((أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَاسْتَطَعَمَتْهَا، فَأَطْعَمَتْهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَتْ

اليهودية لعائشة: أعاذك الله من عذابِ القبر، فانزعجت عائشة، فلما دخل عليها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبرته، فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: هل شعرتِ أنه أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُعَذَّبُونَ، أو تُفْتَنُونَ في قبوركم كفتنة الدَّجَالِ، أو أَشَدَّ، قَالَتْ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: فما رأيتُ رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)).

وكذلك في الحديث الصحيح: ((أَنَّهُ أَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ))، وذكر فيها ((عَذَابَ الدُّنْيَا، وَعَذَابَ الْقَبْرِ))، وفيه دليلٌ على إثبات عذاب القبر.

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازبٍ عند أحمد في مسنده أنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((خَرَجَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَجَلَسَ، وَجَلَسَ الصَّحَابَةُ حَوْلَهُ، وَجَعَلَ يَنْكُثُ بَعْدَ الْأَرْضِ، فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ))، ثم ذكر الحديث، فقال: ((إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتَضَرَ نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ

يَبِضُّ الْوُجُوهُ مِنَ السَّمَاءِ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ...)) الْحَدِيثُ، فَقَالَ: ((تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)).

فَعَذَابُ الْقَبْرِ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهُ ثَابِتٌ، وَالنُّصُوصُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ. وَهَذَا الْعَذَابُ عَلَى الرُّوحِ، وَالْجَسَدُ تَابِعٌ لِلرُّوحِ، وَلَيْسَ عَلَى الرُّوحِ فَقَطْ كَمَا يَقُولُ الْبَعْضُ، وَلَا عَلَى الْبَدَنِ فَقَطْ كَمَا يَقُولُ الْبَعْضُ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ عَلَى الرُّوحِ، وَالْجَسَدُ تَابِعٌ. وَالذُّورُ ثَلَاثَةٌ:

دَارُ الدُّنْيَا: وَهِيَ دَارُ الْحَيَاةِ، الْعَبْرَةُ بِالْجَسَدِ، وَالرُّوحُ تَبِعٌ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ كَثِيرًا مَا يَتَأَلَّمُ الْجَسَدُ، وَالْأَلَمُ عَلَى الرُّوحِ تَبِعٌ.

وَأَمَّا دَارُ الْبَرْزَخِ وَالْقَبْرِ: فَالْعَذَابُ وَالنَّعِيمُ لِلرُّوحِ، وَالْجَسَدُ تَبِعٌ، فَيُنْعَمُ وَيُعَذَّبُ الْجَسَدُ أَيْضًا بِالتَّبَعِيَّةِ. وَأَمَّا دَارُ الْآخِرَةِ: فَيَكْمَلُ بِهَا النَّعِيمُ وَالْعَذَابُ حَيْثُ يَكُونُ عَلَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، كَمَا حَقَّقَهُ السَّفَارِينِيُّ فِي الْعَقِيدَةِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا ابْنُ أَبِي الْعَزَّ فِي (شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ)، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أئِمَّةِ الْعِلْمِ فِي تَقْرِيرِ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

فَعَذَابُ الْقَبْرِ ثَابِتٌ، وَالنُّصُوصُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ.

وَتَرْجَمُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بِهَذِهِ التَّرْجُمَةِ؛ لِأَهْمِيَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي (كِتَابِ الْجَنَائِزِ).

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ خَلْفِ الْبَصْرِيِّ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِذَا قَبِرَ الْمَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: تَمَّ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ؟ فَيَقُولَانِ: تَمَّ كَنُومَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّسْمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَمِعُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)).

الشَّرْحُ:

((أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ)): هذا فيه تَحْوِيلٌ فِي الْمَنْظَرِ وَتَخْوِيفٌ، وَلِذَلِكَ يَكُونُ فِيهِ هَوَلٌ الْمَطْلَعِ بِهَيْبَةِ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ وَهِيَ فَتْنَةُ الْقَبْرِ.

((يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ)): وهذا فيه التَّسْمِيَةُ لِلْمَلَكَيْنِ، وَاعْتَمَدَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- عَلَى ظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ الْحَسَنِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: إِنَّهُمَا مَنْكَرٌ وَنَكِيرٌ لِلْكَافِرِ، وَمُبَشِّرٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُسْلِمِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

الَّذِي وَرَدَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ، وَهِيَ شَامِلَةٌ لِلْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَسِيَاقُ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنََّّهُمَا مَلَكَانِ يَأْتِيَانِ لِلْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ.

((فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)),

((فَيَقُولَانِ)): يُخَاطَبَانِ مَنْ يَسْمَعُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَبْعَثُ، وَفِيهِ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنَّهُ يَبْعَثُ

بَعْدَ مَا يَمُوتُ، وَهَذَا الْبَعْثُ فِي الْقَبْرِ أَنَّهُ يَحْيَى فِي الْقَبْرِ، وَيُحْيِيهِ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِقُدْرَتِهِ الَّذِي أَمَرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

((فِيْجَلْسَانِهِ))، في حديث البراء - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: ((فِيْقَعْدَانِهِ)) أي يُجَلْسَانُهُ؛ لأنَّه يوضع الميت على شقه الأيمن مستقبلاً القبلة كما تقدّم معنا في صفة قبر الميت.

فيأتيانه ملكان فيقعدانه، وهذا يدلُّ على أنَّه يُجَلْس ويُقْعَد، كيف يُجَلْس ويُقْعَد وقد تَفَجَّرَ وتَقَطَّعَتْ أَشْلَؤُهُ؟ وما مصير الذين يُحْرَقُونَ ويصيرون رماداً؟ وما مصير كذا وكذا؟ كله لا تأثير له؛ لأنَّ النَّقْلَ يُوقِفُ العقل، فهذه أمورٌ لا تدركها العقول، ولذلك أوقفنا النصَّ عند حدٍّ ينبغي علينا الإيمان والتسليم به، فالذي خلق وأوجد قادرٌ على كلِّ شيءٍ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ولا يعجزه شيءٌ، يُقْعَدَانُهُ في بحرٍ، يُقْعَدَانُهُ في كهفٍ، يُقْعَدَانُهُ وقد تَفَجَّرَتْ وتَقَطَّعَتْ أَشْلَؤُهُ وَتَمَرَّقَتْ أَعْضَاؤُهُ، قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((يُقْعَدَانِهِ)) يقعدانه، كيف يكون؟ وكيف القبورُ متدانية؟ وكيف يفسح في القبر والقبورُ بعضها متجاوزٌ؟ كلُّ هذا لا تدركه العقول، فهذا أمرٌ أوقفنا عنده النصَّ، فنقفُ حيث أوقفنا النصَّ، لا نزيد على ذلك، ولا نُنْقِصُ منه.

((فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)): يسألانه عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ما تقولُ في هذا الرجل؟ وفي حديث البراء أنَّه: ((مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَيَسْأَلَانِهِ عَنْ دِينِهِ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ)).

((فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)): هذه مسائلُ القبر، ويثبتُ اللهُ فيها الذين آمنوا بالقول الثابت، ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((أَنَّهُ كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))، فيحتاجُ المسلمُ في هذا الوقت إلى التثبت، إلى الدعاء أن يثبتهُ اللهُ، فيسألُ العبدُ ربَّه لأخيه وأخته المسلمة إذا قُبِرَتْ أَنَّ اللهَ يَثْبِتُهَا عِنْدَ السُّؤَالِ: (اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ عِنْدَ السُّؤَالِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)، ونحو ذلك؛ لأنَّه قال: ((اسْأَلُوا لِأَخِيكُمْ التَّثْبِيتَ)) أي كلَّ ما يدلُّ على التثبت، ولم يخصَّ ذلك بلفظٍ معينٍ، فكلُّ ما يسأل به الله - عَزَّ وَجَلَّ - التثبيت فهو داخلٌ في هذا العموم، فيسألُ اللهُ الثباتَ للسائل.

((أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا)) ((قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا)): وهذا يدلُّ على أنَّهما يساقانِ للمؤمن، ويطلعهُم اللهُ على إيمانه، ويساقانِ للكافر والمنافق، ويطلعهُم اللهُ على نفاقه وكفره.

((قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ)): أَنَّ هَؤُلَاءِ رُسُلٌ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُكَ، يَعْنِي مَا جِئْنَا نَمْتَحِنُكَ وَنَحْنُ لَا نَدْرِي أَأَنْتَ مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ، بَلْ إِنَّا عَلَى عِلْمٍ بِعِلْمِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَهَذَا كُلُّهُ فِيهِ تَشْرِيفٌ، وَفِيهِ تَخْوِيفٌ، وَهَكَذَا أُمُورُ الْآخِرَةِ تَدُورُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: مَا بَيْنَ التَّشْرِيفِ، وَالتَّخْوِيفِ.

((ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ)): فِيهِ إِثْبَاتُ فَسْحَةِ الْقَبْرِ، وَهَذَا مَا يَحْتَاجُهُ أَمْوَاتُ الْمُسْلِمِينَ، وَلِذَلِكَ ثَبِتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ لَمَّا قُبِضَ أَبُو سَلَمَةَ وَمَاتَ وَصَّاحَ سَمِعَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصَّوْتَ مِنَ الدَّارِ، قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لَا تَقُولُوا إِلَّا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ))، فَهَذِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْمَيِّتُ، أَنَّكَ تَدْعُو لَهُ بِفَسْحَةِ الْقَبْرِ وَالنُّورِ، أَمَّا النُّورُ؛ فَلَأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثَبِتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا))، وَلِذَلِكَ قَالَ: ((وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَائِي عَلَيْهِمْ)).

وَكُونَهُ يُفْسَحُ لَهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا هَذَا مِمَّا يَنْبَغِي الْإِيمَانُ بِهِ، أَنَّ اللَّهَ يَفْسَحُهَا بِهَذَا الْقَدْرِ، وَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُفْسَحَ أَكْثَرَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكَيْفَ تُفْسَحُ الْقُبُورُ وَهِيَ مُتَدَانِيَةٌ مُتَقَارِبَةٌ؟ وَكَيْفَ يُفْسَحُ فِي الْقَبْرِ أَمْوَاتٌ لَا يَعْدُونَ وَلَا يَحْصُونَ؟! كُلُّ ذَلِكَ عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا يَعْجُزُهُ شَيْءٌ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ؟ فَيَقُولَانِ: تَمْ كَنُومَةِ الْعُرْسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ))، هَذَا حَالُ السُّعْدَاءِ: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}، {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ}: فَائِدَةُ التَّوْحِيدِ أَنَّ اللَّهَ يُسَعِّدُ بِهِ عَبْدَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}، هَذَا هُوَ حَالُ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ هَذِهِ الدُّنْيَا فِي الْمَهَانَةِ وَالْمَذَلَّةِ، فَهِيَ ضَرَّةُ الْآخِرَةِ، وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَيَبْدَأُ التَّكْرِيمُ، وَبِمَجْرَدِ أَنْ تَقْبُضَ رُوحُ الْمُؤْمِنِ أَوْ تَدْنُو سَاعَتُهُ فَإِنَّهُ يَبْدَأُ التَّكْرِيمُ.

فَلِذَلِكَ قَالَتْ فَاطِمَةُ كَمَا فِي الصَّحِيحِ: ((وَكَرَبَ أَبَاهُ)) لَمَّا رَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ)).

فَإِذَا قُبِضَتْ رُوحُهُ فَهُوَ مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ وَأَشَوْقَهُمْ، حَتَّى إِنَّهُ حَالُ نَزْعِ رُوحِهِ بَعْدَ أَنْ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَحَسَنِ الْعَاقِبَةِ وَالْمَأَبِ لَوْ خُيِّرَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَبَيْنَ مَا هُوَ قَادِمٌ

عليه لاختار على ما عند الله على أهله وماله وولده، ثم إذا نزل في قبره فإنه يريد أن يرجع إلى أهله؛ حتى يخبرهم ما نال، فكم كان ذليلاً بين أهله، كم أمرهم بالمعروف، وكم نهاهم عن المنكر، وكم سخروا منه، وكم آذاه قومه، وكم؛ لأنه حال السعداء، فيريد أن يرجع؛ حتى يقول لهم، ولذلك قال: **{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}**.

فهؤلاء هم أولياء الله، وأهل طاعته، وأهل محبته، وهذا هو الذي يُسَلِّي الإنسان في نكد الدنيا ونغصها ومهانة أهلها ومذلتها، فإنها لا تغني له من الله شيئاً في جنب هذا النعيم المقيم، ثم يغمس يوم القيامة غمسةً من كان أبأس الناس في هذه الحياة وأشدّهم عناءً وعذاباً وبؤساً، فيغمس في نعيم الجنة غمسةً، يقال: ((عبدِي، هل مرَّ بك بؤسٌ قط؟ فيقول: لا، وعزتك)) ينسى أنه مرَّ به بؤسٌ، **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}**.

فيقول: يريد أن يرجع إلى أهله، فيقال له: ((نَمْ صَالِحًا))، كما في حديث البراء بن عازب: ((نَمْ صَالِحًا))، ((نَمْ صَالِحًا)) على أن صالِحاً حالٌ منه، أنه عبدٌ صالحٌ، فينام نومة الصالحين. وقيل: نام نوماً صالحاً لا يقلُّك، ولا يزعجك شيءٌ حتى يبعث الله -عزَّ وجلَّ- الموتى. ((حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)): يبعثه من مضجعه ذلك، دلَّ على أنه يبعث بعثة واحدة للآخرة، وما يقوله البعض كما يقول التَّيْجَانِيُّ وَعَيْزَةُ: (أنَّهُ التَّقَى بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقْظَةً، وأنه أعطاه الأذكارَ، وأعطاه)، ما فيه بعد الموت إلا بعثة للآخرة، ولذلك قال في شهداء أحد: ((أَمَّا إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ الْعَهْدُ مِنِّي أَنَّ مَنْ مَاتَ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا))، فلا يبعث إلا هذا البعث بعث الآخرة الذي يبعث منه إلى حسابه ونشره وديوانه، وغيرها من أمور الآخرة وأهوالها، سلَّمنا الله وإياكم منها. ((وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَال: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي)): أمَّا الكافر فيقول: (ها، ها، لا أدري)، والمنافق يقول: (سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شيئاً فقلته).

والفرق بين الكافر والمنافق: أنَّ المنافقَ يُظْهَرُ الإيمانَ، ويُبْطِنُ الكُفْرَ، ولذلك كما خدع المسلمين يخدع يوم القيامة، ويضرب بينهم وبين المؤمنين: **{بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}**، فهؤلاء المنافقون كما خدعوا المسلمين في الدنيا يخدعون في الآخرة، ويكونون مع المؤمنين حتى يُحال بينهم وبين المؤمنين، كما أنَّ ظاهرهم الخيرُ وباطنهم الشرُّ، أُعْطُوا الظاهر أتهم مع المؤمنين، ثُمَّ يأخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ بأعمالهم، فهذا حال المنافق، ولذلك

يقول: (سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ)، فهو يُظهر شيئًا لا يعتقدده في باطنه، وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ متعلِّقٌ بالجنان وباللسان وبالجوارح والأركان، فينبغي للمسلم أن يكونَ مؤمنًا مُحَقِّقًا للإيمان على وَفْقِ مُرَادِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فالمناقق يقول: (سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ).

وفي الرواية الأخرى: ((هَآ، هَآ، لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتُ، وَلَا تَلَيْتُ))، ((: لَا دَرَيْتُ، وَلَا تَلَيْتُ)) وهذا من الإعجاز؛ لأنَّ الإنسان: إمَّا أن يدري، وإمَّا أن يتلو.

العلم: إمَّا أن يأتي بالقراءة، وإمَّا أن يأتي بالدِّرَاية.

القراءة: أن يقرأ على أهل العلم، وأمَّا الدِّرَاية: فهي العلومُ المستفادةُ بالخبرة والتَّظَرُّ، وليس معنى ذَلِكَ أنَّ الشرع يُؤخَذُ بالدِّرَاية، لا، إمَّا يؤخذ بالرواية؛ لأنَّه سنَّةٌ متبعةٌ، الشرعُ سنَّةٌ متبعةٌ.

وأمَّا بالنسبة للعلوم كُلِّها: إمَّا رِوَايَةً، وإمَّا دِرَايَةً، أن يأخذها روايةً بالتلقي، وإمَّا أن يأخذها بالخبرة والمعرفة، ولذلك قال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}، فهذا العلمُ الظاهرُ في الدنيا الذي يؤخذ بالكسب والدِّرَاية.

فهو يُقال له: ((لَا دَرَيْتُ، وَلَا تَلَيْتُ)) -نسأل الله السَّلامَةَ والعافية-، وهذا يدلُّ على فقره من العلم النافع، أنَّه ليس عنده علم، ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْمَرْزَبَةِ مِنَ الْحَدِيدِ.

((فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا)): كُنَّا نَعْلَمُ ما أنت عليه من الإيمان والكفر، ما جاءوا يسألونه لأجل أن يطلعهم هل هو مؤمنٌ أو كافرٌ، وإمَّا هو امتحانٌ، كما ذكرنا، وهذا وجهُ الفتنة والامتحان.

((فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِي عَلَيْهِ)): وفي حديث البراء: ((أَنَّهُ يُضْرَبُ بِمَرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ))، وهذه المرزبة يُضْرَبُ بِهَا فيصيح، فيسمعه جميعُ مَنْ خلق الله، إِلَّا الجنَّ والإنسَ، ولو سَمِعُوهَا لَصُعِقُوا -والعياذُ بالله-، قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَوْ لَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ لَا تَدَافِنُونَا لَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ))، ولذلك عذاب القبر لا يعلم به أحدٌ، ولا يُعْلَمُ إِلَّا من طريق النص.

وما يشيعُ الآن أنَّ البعض يقول: إنَّ هناك شريط، وأنَّه سَمِعَ عذابًا، وسُجِّلَ، لا يجوزُ لمسلم أن يعتقد أنَّ هذا عذاب القبر؛ لأنَّ النصَّ حَيْلٌ بين الأمة وبين سَمَاعِهَا، لكن أن يستفيدَ من هذا وأن يعتقد أنَّ عذاب الله أعظم؛ من أجل أن يعتبرَ ويتعظَّ، هذا شيء آخر.

أمَّا أن يعتقدَ صِدْقَ ذَلِكَ فلا؛ لأنَّ هذا أمرٌ موقوفٌ على الوحي، وموقوفٌ على أمرٍ يُثَبَّتُ لنا أنَّ هذا من أمر البرزخ، ولذلك لا يجوزُ أن يعتقدَ شيئًا من أمور الآخرة إلا بنصٍّ ودليل، فما دلَّ عليه الدَّلِيلُ

يعتقد، وما لا يدلُّ عليه الدَّلِيلُ لا يعتقد، لكن لو أنَّه تأثر بسماعه واتعظ، عليه أن يوقن أنَّ عذابَ الله أشدُّ من هذا، وأنَّ ما عند الله أعظمُ من هذا: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا}.

فالعذاب الذي أعدَّه الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا} هذا يدلُّ على أنَّ ما وراء العبد من أمور الآخرة فوق ما يخطر له على بالِه، وفوق ما يخطر على ظنِّه، ((وَأَنَّ ضَرْسَ الْكَافِرِ مِثْلُ جَبَلٍ أُحْدٍ، وَأَنَّ مَقْعَدَهُ مَا بَيْنَ إِيْلِيَا الَّتِي هِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ وَالْحِجَازِ))، وهذا يدلُّ على عظم أمر الآخرة، وأنَّها فوق ما يتصوَّره الإنسان.

ولذلك ينبغي للإنسان أن يتعظَّ بهذه النصوص الواردة والصحيحة عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأن يجعلها حافزًا له على العمل، وما أدَّبَ الْمُؤْمِنَ شَيْءٌ بعد الإيمان بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته وكتابه ومواعظه، مِثْلُ ذِكْرِ الآخرة، والإنسان الذي يذكر أنَّه ستمر عليه مثل هذه الساعة وهو ضجيع اللحد والبلى، لا ينفعه مال ولا بنون، وأنَّه مرهون بقوله وعمله، فإنَّ هذا من أعظم ما يعينه على كثرة العمل الصالح، والعفة عمَّا حَرَّمَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، الآخرة تُهْدِبُ أَخْلَاقَ الْمُؤْمِنِينَ.

((فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ)): هذا من عاجل العذاب أنَّه يُضَيَّقُ عليه في قَبْرِهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا، وَذُكِرَ الْكَافِرُ، وَالْمُنَافِقُ أَشَدُّ.

((فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)): لا يزال فيها معذبًا عذابًا لا ينقطع

وهذا قيل: إِنَّ الْعَذَابَ لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا الْفَتْرَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ عَذَابِ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَالنَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ

قَدَرُهَا أَرْبَعِينَ، وَلِذَلِكَ: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

الْمُرْسَلُونَ}، يقال: إِنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي تَكُونُ مَا بَيْنَ بَرْزَخِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي

عَذَابٍ مُقِيمٍ -نَسَأُ اللهُ السَّلَامَةَ الْعَافِيَةَ-، {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَفِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَأَبِي أُيُوبٍ وَأَنَسٍ وَجَابِرٍ وَعَائِشَةَ وَأَبِي كُلْثُومٍ رَوَوْا عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي عَذَابِ الْقَبْرِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الشَّحْ:

هو ترجم (عذاب القبر) وهذا من باب التنبيه بالشيء على نظيره، هو الحقيقة عذاب القبر ونعيم القبر، والحديث فيه العذاب، وفيه النعيم، والعلماء يذكرون العذاب من باب التنبيه بالنظير على نظيره، وإلا فالأصل فيه نعيم، وفيه عذاب، وليس القبر وحده عذاب، هذا ينبغي التنبيه له من باب ذكر الشيء، والتنبيه على نظيره، من ذكر النظير، والتنبيه به على نظيره.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا هَنَادٌ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّحْ:

هذا يدل على نوع من فتن القبر، وامتحان القبر، أنه يعرض عليه مقعده، فيزداد فرحاً وشوقاً إلى الآخرة إن كان مؤمناً، ويزداد خوفاً من الآخرة إذا كان كافراً.

وهذا نوع من النعيم، ونوع من العذاب، نوع من النعيم للسعداء، ونوع من العذاب للأشقياء لأن الكافر يخاف يقول: ((رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ))، كما في حديث البراء أنه إذا رأى مقعده من النار يقول: ((رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ))؛ لأن ما بعد القبر أشد، فهو من عذاب إلى أشد منه -نسأل الله السلامة والعافية-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي أَجْرِ مَنْ عَزَى مُصَابًا].

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عَيْسَى، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا وَاللَّهُ! مُحَمَّدُ بْنُ سُوْقَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ عَزَى مُصَابًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَيْسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ.

وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوْقَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، مِثْلَهُ مَوْفُوفًا، وَلَمْ يَرْفَعْهُ. وَيُقَالُ: أَكْثَرَ مَا ابْتُلِيَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ، نَقَمُوا عَلَيْهِ.

الشرح:

هذا الحديث ضعيف، وتعزية المصاب فيها أجر عظيم بأصل الشرع، أن من عزى مصابًا كان له أجر من الله -عز وجل- في تلك التعزية.

أما قدره: بأنه يكون مناسبًا للمصاب، فالحديث ضعيف، لكن الله -سبحانه وتعالى- يجعل أجر التعزية بقدر ما يجعله -سبحانه وتعالى-، وتتفاوت التعزية، فمن حصلت له المشقة في التعزية أعظم من الذي يأتي من مكان قريب، والذي يعزي مصابًا، فيؤثر، ويقول الكلام النافع، ويقول ما ورد في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويعطى الموعظة المؤثرة التي تثبت بها القلب، أجره أعظم ممن يأتي يعزي وينصرف.

ومن يعزي، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويبين السنة وهدى النبي -صلى الله عليه وسلم- في التعزية، وترك الأمور التي لا أصل لها، وترك البدع والمحدثات، أجره أعظم ممن يسكت على ذلك. فالملقود: أن العباد تتفاوت درجاتهم في التعزية، فأعظم الناس فيها أجرًا من تحرى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهديه، ونفع الله به إخوانه المسلمين.

والتعزية: تفعلة من العزاء، أن يقال للإنسان ما يعزيه، أي يسليه عن مصابه.

وهذا من أعظم ما يكون إذا كان بكتاب الله -عز وجل-، ولن تجد موعظة أبلغ من كلام الله -عز وجل-، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، وكلمة الله في

كتابه، وكلماتُ الله في كتابه دواءٌ وبلسمٌ وشفاءٌ لِمَا في الصدور، بِهَا تَحْيَا الْقُلُوبُ، وَبِهَا تَطْمَئِنُّ، تَجِدُ
الإنسانَ مصابًا بعزيرٍ، فقدّه فإذا ذَكَرَ بِالْآيَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ انشرح صدره، وأطمأنَّ قلبه، وأيقنَ بِمَا عِنْدَ
اللَّهِ مِنَ الْمَثُوبَةِ، فَتَعَزَّى وَتَسَلَّى، وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الْعِزَّ وَالْإِيمَانَ وَالْيَقِينَ خَلْقًا مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فِي
اللَّهِ عَوْضٌ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَكِرَمِهِ وَجُودِهِ وَحِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ لَا
يُخَيِّبُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ بِالْمُؤْمِنِ إِلَّا كُلَّ خَيْرٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((عَجِبْتُ لِأَمْرِ
الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ خَيْرٌ))، وَهَذَا مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنْ يَقُولَ لَنَا هَذَا،
فَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَّا خَيْرًا.

فَمِنْ أَنْطَلَقَ مِنْ هَذَا الْمَنْطَلَقِ فِي تَعَزُّيْتِهِ لِإِخْوَانِهِ وَتَسْلِيَّتِهِ لَهُمْ بِمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ،
فَإِنَّ هَذَا بِخَيْرِ الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللَّهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَأَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ قَالَا حَدَّثَنَا
هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ سَيْفٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِلَّا
وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

الشَّرْحُ:

هَذَا الْبَابُ تَرْجَمَ بِهِ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- لِتَعْلُقِهِ بِكِتَابِ الْجَنَازَةِ، وَأَعَدَّهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ عِلَامَةِ حَسَنِ
الْخَاتِمَةِ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَالْحَدِيثُ بِرَوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ ضَعِيفٌ، وَلَكِنَّهُ حَسَنٌ بِالشَّوَاهِدِ، فَشَوَاهِدُهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ وَثَابِتٌ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَلِذَلِكَ الْمَوْتُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ عِلَامَةِ حَسَنِ الْخَاتِمَةِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عِلَلًا، أَنَّهُ يَوْمَ رَحْمَةٍ، وَيَنْبَغِي الْكَفُّ فِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ، وَرَدُّ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى -، لَكِنَّهُ مِنْ دَلَائِلِ حَسَنِ الْخَاتِمَةِ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، فَإِذَا مَاتَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، وَتَبَدَّأَ بِمَغِيبِ شَمْسِ يَوْمِ الْخَمِيسِ، وَقَبْلَ مَغِيبِ شَمْسِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

وَقَوْلُهُ: ((يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتِهِ)) مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ: إِذَا مَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِ(يَوْمِهِ) الْعَمُومِ، فَيَكُونُ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، أَوْ يَكُونُ (اليوم) بِمَعْنَى النَّهَارِ، أَيْ نَهَارِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتِهَا.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَهَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ رِبْعَةُ بْنُ سَيْفٍ، إِنَّمَا يَرْوِي عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُبَلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَلَا نَعْرِفُ لِرِبْعَةَ بْنِ سَيْفٍ سَمَاعًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

الشَّرْحُ:

وله حديث آخر عند أحمد في مسنده، وهو مُحَسَّنٌ بالشواهد.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعْجِيلِ الْجَنَازَةِ]. قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهُ: ((يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ لَا تُؤَخَّرُهَا: الصَّلَاةُ إِذَا آتَتْ، وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، وَالْأَيْمُ إِذَا وَجَدْتَ لَهَا كُفْمًا)).

الشَّرْحُ:

[بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعْجِيلِ الْجَنَازَةِ]: هَذَا الْبَابُ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ بَيَانُهُ وَبَيَانُ مَسَائِلِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَمَتَى يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْجَنَازَةِ، وَمَا يَسْتَنْى، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ أَنَّهُ يَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ بِالْمِيتِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْجَنَازَةِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِهَذَا الْبَابِ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِكِتَابِ الْجَنَازَةِ؛ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِسُنَّةِ نَبَوِيَّةٍ، وَهِيَ وَجُوبُ الْمُبَادَرَةِ

بالجنازة، كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الصحيح: ((أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ))، وقال في حديث شداد: ((لَا يَحِلُّ لَجِيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تَبْقَى بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِهِ))، وَبَيَّنَّا أَحْكَامَ التَّأْخِيرِ عِنْدَ وَجُودِ السَّبَبِ. يَقُولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((يَا عَلِيُّ، ثَلَاثٌ لَا تُؤَخِّرُهَا)) هَذَا مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَالْوَصِيَّةِ أَنَّهُ يُوصِي عَلِيًّا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

((الصَّلَاةُ إِذَا أَتَتْ)): وَفِي بَعْضِهَا: ((إِذَا آتَتْ)) أَيِ حَضَرَتْ، وَالصَّلَاةُ إِذَا حَضَرَتْ لَا تُؤَخَّرُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَ مَنْ أَخَّرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؛ لِأَنَّ التَّأْخِيرَ نَوْعَانِ: تَأْخِيرٌ عَنِ الْفَضِيلَةِ، وَتَأْخِيرٌ عَنِ الْوَقْتِ. تَأْخِيرٌ عَنِ الْفَضِيلَةِ: إِذَا كَانَتْ الصَّلَاةُ الْأَفْضَلُ فِيهَا أَنْ تُوَدَّى فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، مِثْلُ: صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، وَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ.

وَأَمَّا الْعِشَاءُ: فَإِنَّ الْأَفْضَلَ فِيهَا التَّأْخِيرُ.

أَمَّا صَلَاةُ الْفَجْرِ: فَلَأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ((كَانَ يُصَلِّيُهَا بَغْلَسٍ))، ((وَكَانَ يَنْفُتِلُ مِنْهَا حِينَ يَعْرِفُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ)) كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَفِي حَدِيثِ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ: ((إِنْ كَانَ النِّسَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ يَنْقَلِبْنَ إِلَى بِيُوتِهِنَّ مَا يَعْرِفْنَ مِنْ شِدَّةِ الْغَلَسِ))، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَا فِي (أَبْوَابِ الْمَوَاقِيتِ).

وَأَمَّا الظُّهْرُ: فَمَعْلُومٌ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ: ((أَنَّهُ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُصَلِّي الظُّهْرَ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ))، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مُبَادَرَتِهِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، إِلَّا فِي حَالِ اشْتِدَادِ الْحَرِّ؛ لِقَوْلِهِ: ((إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ)).

وَأَمَّا الْعَصْرُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَعَجِّلُهَا فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي الْمُنْهَالِ سَيَّارِ بْنِ سَلَامَةَ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ((وَيُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَحَدُنَا إِلَى رَحْلِهِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ))، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ صَلَّاهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ. وَهَذَا كُلُّهُ إِلَّا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ، فَإِنَّهَا تُؤَخَّرُ؛ لِأَنَّ الْأَفْضَلَ فِيهَا التَّأْخِيرُ.

((وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ)): هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ، ((الْجَنَازَةُ)): تَطْلُقُ بِمَعْنَى السَّرِيرِ، وَتَطْلُقُ بِمَعْنَى الْمِيتِ. وَالْمُرَادُ هُنَا: الْمِيتَ، أَيِ أَنَّهُ يُصَلَّى عَلَى الْمِيتِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُصَلَّى عَلَى السَّرِيرِ، وَإِنَّمَا يُصَلَّى عَلَى الْمِيتِ، فَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْجَنَازَةِ، وَتَأْخِيرُ الصَّلَاةِ عَلَيْهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ.

والْحَقِيقَةُ أَنَّ النَّاسَ ضَيَّعُوا هَذِهِ السَّنَةَ، وَحَبَسُوا الْجَنَائِزَ أَصْبَحَ سُنَّةً وَعَادَةً مَعْرُوفَةً، وَبَسَّ الْعَادَةُ؛ لِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِلْسَّنَةِ وَهَدْيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ، فَيَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ بِالْجَنَائِزِ، وَهُوَ هَدْيِ السَّنَةِ عَنْ رَسُولٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وَأَمَّا مَسْأَلَةٌ: أَنْ يَكْثَرَ الشُّهُودُ، وَيَكْثَرَ الدُّعَاءُ، فَهَذَا اجْتِهَادٌ فِي مَقَابِلِ النَّصِّ، فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي اتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالْمَيْتِ مَشْتَقٌّ وَيَحْنُ، وَيَتَمَنَّى لِقَاءَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَحَبْسُهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مُخَالَفٌ لِلْأَصْلِ، وَهُوَ أَذِيَةٌ لِلْمَيْتِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ: ((قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي)) الْجَنَازَةَ تَرِيدُ أَنْ يُسْرَعَ بِهَا، وَتَرِيدُ أَنْ يُبَادَرَ بِهَا إِذَا كَانَتْ صَالِحَةً، فَهَذَا الْجَهْلُ بِاجْتِهَادِ أَنَّهُ يَكْثَرُ مَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَهَكَذَا إِنَّمَا رَخَّصَ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ، أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ بِوَقْتٍ يَسِيرٍ، يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَكُونَ الْعَدَدُ أَكْثَرَ، هَذَا يُمَكِّنُ.

أَمَّا أَنْ يُؤَخَّرَ الْيَوْمَ، وَالْيَوْمِينَ، وَيُدْعَى خَالُهُ وَعَمُّهُ وَصَدِيقُهُ، وَفُلَانٌ، وَانْتَظَرُوا فُلَانًا، وَعَلَانًا فَهَذَا مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْسَّنَةِ، وَيَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ بِالْجَنَائِزِ، وَهَذَا هُوَ هَدْيِ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، أَنَّهُ لَا تُؤَخَّرُ الْجَنَازَةُ.

((وَالْأَيِّمُ إِذَا وَجَدَتْ لَهَا كُفْوًا)): وَالْأَيِّمُ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، سَوَاءً كَانَتْ ثَيِّبًا أَوْ بَكْرًا، {وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ}، وَقَدْ تَطَلَّقَ بِمَعْنَى الثَّيْبِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((الْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ، وَالْأَيِّمُ تُسْتَأْمَرُ)).

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ الْأَيِّمُ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، إِذَا حَضَرَ لَهَا الزَّوْجُ وَالْكَفُّ فِي دِينِهَا، وَحَسْبِهَا، وَنَسَبِهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُشْتَرَطُ فِي الْكَفَاءَةِ، وَكَانَ كَفْوًا كَرِيمًا، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ ظُلْمٌ.

وَعَبَّرَ بِالْكَفَاءَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَجِدَ الْكَفُّ فَلَا مَعْنَى لِتَأْخِرِ الْوَلِيِّ، وَيَكُونُ تَأْخِرُهُ حِينَئِذٍ أَذِيَةً لِلْمَرْأَةِ وَظُلْمًا لَهَا، وَسَيَأْتِي فِي (بَابِ النِّكَاحِ) تَفْصِيلُ ذَلِكَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَسَنٌ، وَمَا أَرَى إِسْنَادَهُ بِمُتَّصِلٍ.

الشرح:

الْمَثْنُ صَحِيحٌ، الْمَثْنُ تَدُلُّ عَلَيْهِ النُّصُوصُ كُلُّهَا، كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}، وَنَزَلَتْ فِي الرَّجُلِ مِنَ الْأَنْصَارِ حِينَمَا مَنَعَ أُخْتَهُ، فَلَا يَجُوزُ لِلْوَلِيِّ أَنْ يَعْضَلَ مَوْلِيَتَهُ. وَأَمَّا الصَّلَاةُ إِذَا حَضَرَتْ: فَالنَّصُّ فِيهَا وَاضِحٌ: ((سَأَلْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا))، وَهُوَ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَهَكَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْجَنَازَةِ: حَدِيثُ جَابِرٍ: ((أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ)) فِي الصَّحِيحِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا الْمَثْنُ صَحِيحٌ. وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلسَّنَدِ فَفِيهِ الْكَلَامُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُصَنِّفُ، وَسَتَكَلِّمُ عَلَيْهِ فِي (كِتَابِ الْعِلَلِ) -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ آخِرُ فِي فَضْلِ التَّغْرِيبِ].

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ الْمُؤَدَّبُ، حَدَّثَنَا يُؤُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أُمُّ الْأَسْوَدِ عَنْ مُنِيَّةِ ابْنَةِ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي بُرْزَةَ، عَنْ جَدِّهَا أَبِي بُرْزَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ عَزَى ثُكْلِي، كُسِيَ بُرْدًا فِي الْجَنَّةِ)). قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيِّ.

الشرح:

هَذَا الْحَدِيثُ مُتَكَلِّمٌ فِي إِسْنَادِهِ، وَأَبُو بَرَزَةَ: نَضَلَهُ بْنُ عُبَيْدٍ فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ فِي اسْمِهِ، قِيلَ: غَيْرَ ذَلِكَ، وَهُوَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ- وَالثُّكْلَى: هِيَ الَّتِي تَفْقَدُ، سِوَاءَ فَقَدَتْ وَلَدَهَا أَوْ زَوْجَهَا، الْمَرْأَةُ الْمَكْلُومَةُ الَّتِي فَقَدَتْ تُعْزَى وَالْمَصَابِ بِهَا؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ ضَعِيفَةً، وَقَدْ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ

- كما في الصحيح -: (الْمَرْأَةُ، وَالْيَتِيمُ))، فوصف المرأة بكونها ضعيفةً، فالمصيبةُ على النساءِ أشدُّ من المصيبةِ على الرجال؛ لضعفهن، ولذلك تعزيتهن ومواسأتهن لها أثَرٌ. ومن الأمور التي إن كان يعتنى بها تعزيةُ النساءِ، كأُمِّ الميت، والناسُ اليوم يُقَصِّرون، كالعالم والشيخ ونحوه والخطيب وإمام الحي يحرص على تعزية الأُمِّ والنساء؛ لأنَّه في بعض الأحيان يُعَتَّى بتعزية الرجال على وجهٍ تكون الحاجةُ للمرأة أكثر، فقد تكونُ الأُمُّ مكلومةً مفجوعةً بولدها أكثر من غيرها، وهذا معروفٌ، فإنَّ حنانَ الأُمِّ معروفٌ، ولذلك مثَّلَ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - به في الأمر العظيم في الرحمة وقال: ((أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قَالُوا: لَا، قَالَ: اللَّهُ أَشَدُّ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا))، فهذا يدلُّ على عظم شفقة الأُمِّ ورَحْمَتِهَا بولدها.

قَالَ -رَحْمَةُ اللهِ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ عَلَى الْجَنَازَةِ].

قَالَ -رَحْمَةُ اللهِ-: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ دِينَارٍ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبَانَ الْوَرَّاقُ عَنْ بَنِي يَعْلَى عَنْ أَبِي فَرَوَةَ يَزِيدَ بْنِ سِنَانٍ عَنْ زَيْدٍ وَهُوَ ابْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةٍ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فِي أَوَّلِ تَكْبِيرَةٍ، وَوَضَعَ الْيَمْنَى عَلَى الْيُسْرَى)).

الشَّرْحُ:

رفعُ اليدين تقدَّم معنا في صفة الصلاة على الميت، ورفعُ اليدين في الصلاة على الميت: إمَّا أن يكون في التكبيرة الأولى، أو بقية التكبيرات.

أَمَّا فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى: فمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا بَقِيَّةُ التَّكْبِيرَاتِ: فَذهب الحنفيةُ والمالكيةُ إلى أَنَّهُ لَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ.

وذهب الشافعيةُ والحنابلةُ وغيرهم من أهل الحديث إلى أَنَّهُ يَرْفَعُ يَدَيْهِ، وَصَحَّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي بَقِيَّةِ التَّكْبِيرَاتِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مُوقِفٌ، وَلَا يَفْعَلُهُ ابْنُ عَمْرٍو إِلَّا وَقَدْ رَأَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يُحْتَجُّ فِيهِ بِفَعْلِ الصَّحَابَةِ، وَإِنَّمَا يُحْتَجُّ فِيهِ بِالْمَرْفُوعِ.

فمن رفع له وجهه، ومن ترك فله وجهه، والذي لا يرفع أقوى من حيث الوارد، أنه لم يرد عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الرفع في التكبيرات.
والرفع في تكبيرة الإحرام وهي الأولى لا إشكال فيه، كلهم متفقون عليه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا: فَرَأَى أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَغَيْرِهِمْ أَنَّ يَرْفَعُ الرَّجُلُ يَدَيْهِ فِي كُلِّ تَكْبِيرَةٍ عَلَى الْجَنَازَةِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ.
وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: لَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَّا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَأَهْلِ الْكُوفَةِ، وَذُكِرَ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ: لَا يَقْبِضُ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ.
وَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ يَقْبِضَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ، كَمَا يَفْعَلُ فِي الصَّلَاةِ.
قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: يَقْبِضُ أَحَبُّ إِلَيَّ.

الشَّرْحُ:

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ قَوْلُهُ: (أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ) هَذَا لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْجُمْهُورُ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ مَذْهَبَ مَالِكٍ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ.

وَمَالِكٌ لَا يَرَى الرِّفْعَ إِلَّا فِي تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ كَالْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَرْفُوعٌ بِالرِّفْعِ فِي بَقِيَةِ التَّكْبِيرَاتِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْقَبْضِ، وَوَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ: فَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي (كِتَابِ الصَّلَاةِ) ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ وَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ، وَقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصَّلَاةَ عَلَى الْجَنَازَةِ صَلَاةً، فَيُشْرَعُ فِيهَا مَا يُشْرَعُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: ((أَمَرْنَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ نَأْخُذَ بِأَيْمَانِنَا عَلَى شِمَائِلِنَا فِي الصَّلَاةِ))، وَهَذَا شَامِلٌ لَصَّلَاةِ الْجَنَازَةِ، فَيُشْرَعُ أَنْ يَأْخُذَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ إِذَا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يَضَعُ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَبَيْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَبَيْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِيهَا، وَهِيَ سُنَّةٌ.

وَأَمَّا الْقَبْضُ: فَهُوَ زَائِدٌ عَلَى وَضْعِ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ.

القبضُ: يكون بالارتفاق بأخذ الشمال باليمين، وهو معنى قوله: ((أَمَرْنَا أَنْ نَأْخُذَ))، وهذا هو القبضُ، وهو نوعُ اعتمادٍ، ولذلك هناك فرقٌ بين وضع اليمين، وبين القبض، فأنت إذا وضعتَ اليمينَ تَجِدُ مشقةً، لكن إذا قبضتَ ارتحتَ، وهذا معنى كون الإمام مالك يقول: (لا أعرفه) أي لا أعرفُ القبضَ (ولا بأسَ به في النفل، وأكرهه في الفرض)، فرخص فيه في النافلة، ولم يرخص فيه في الفرض؛ لأنه نوعُ اعتمادٍ، وليس معناه أنَّ الإمامَ مالكا يقول بالسَّدْلِ، كما فهم بعض أصحابه، هذا من دِقَّةِ الإمام مالك.

أمَّا وضع اليمين على الشمال فيقول به الإمامُ مالكٌ، وترجم له في كتابه الموطأ: [بَابُ وَضْعِ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلَاةِ]، فكيف يقول: (لا أعرفه)؟ فهو ليس مراده بـ(لا أعرفه) الذي ورد في (المُدَوَّنَةِ)، والذي يَحْتَجُّ به بعض المالكية، مراده به: القبضُ، وهو الأخذُ، فقال: (لا أعرفه)؛ لأنه لم ترد السُّنَّةُ الواردةُ بالأخذ، فقال بوضع اليمين على الشمال، وهذا حَدٌّ، وأمَّا الأخذُ وهو الزيادةُ، الذي ورد في الحديث الذي ذكرناه، وهو حديثٌ صحيحٌ، فقال: (لا أعرفه، ولا بأسَ به في النفل)؛ لأنَّ النفلَ يَجُوزُ فيه الاعتمادُ، وأمَّا الفرضُ فإنه لا يَجُوزُ فيه الاعتمادُ.

وهذا من فقهه -رَحِمَهُ اللهُ-، وهذه العبارة في (المُدَوَّنَةِ) التي شَوَّشَ بِهَا البعضُ، وقال: إِنَّ الإمامَ مالكا لا يرى وضعَ اليمين على الشمال، وهذا ليس بصحيحٍ، فالإمامُ مالكٌ يرى السُّنَّةَ وهو وضعُ اليمين على الشمال، ولكنه تَوَقَّفَ في مسألة القبض، ورخصَ به في النافلة، وكرهه في الفرض، ولذلك قال عبدالرحمن بن قاسم: سألتُ مالكا عن القبض، فقال: (لا أعرفه، ولا بأسَ به في النفل، وأكرهه في الفرض)، وضع اليمين على الشمال فيه ما لا يقلُّ عن عشرين حديثًا، ما بين صحيحٍ وحسنٍ وضعيفٍ قابلٍ للأنجبار.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ].

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غَيْلَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ)).

الشَّح:

تَقَدَّمَ مَعْنَا هَذَا الْحَدِيثِ، وَبَيَّنَّا أَنَّ مَعْنَاهُ التَّغْلِيظُ وَالتَّشْدِيدُ فِي مَسْأَلَةِ دِيُونِ الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ فِي سَدَادِ دِيُونِهِمْ -نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَسَدِّدَ عَنَّا دِينَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَتَحَمَّلَ عَنَّا حَقُوقَهُ وَحَقُوقَ خَلْقِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ)).

الشَّح:

تَرْجَمَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بِمَضْمُونِ هَذَا الْحَدِيثِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَصَحُّ مِنَ الْأَوَّلِ.
(آخِرُ كِتَابِ الْجَنَائِزِ).

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى، اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا، اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَلَا تَضِلَّنَا، وَارْحَمْنَا وَلَا تَعَذِّبْنَا، وَسَاخِنَا وَلَا تُؤَاخِذْنَا، وَسَاخِنَا وَلَا تُؤَاخِذْنَا، وَزِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرُمْنا وَأَكْرُمْنا وَلَا تُهِنَّا، وَآثِرْنَا وَلَا تَوَثِّرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا، وَرَضِّنَا، وَارْضَ عَنَّا، اللَّهُمَّ يَمِّنْ كِتَابَنَا، وَحَسِّنْ خَتَمَنَا، وَبَيِّضْ فِي لِقَائِكَ وَجُوهَنَا، وَثَقِّلْ موازِينَنَا، اللَّهُمَّ ارحم في موقفِ العَرْضِ عليك ذُلَّ مقامِنَا، اللَّهُمَّ ارحم في موقفِ العَرْضِ عليك ذُلَّ مقامِنَا، اللَّهُمَّ لا تفضحنا يومَ العَرْضِ عليك اللَّهُمَّ لا تفضحنا يومَ العَرْضِ عليك، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ هِدَايَةً لَا نَضِلُّ بِعَدهَا أَبَدًا، وَسَعَادَةً لَا نَشْقَى بِعَدهَا أَبَدًا، وَرَحْمَةً لَا نَعَذِّبُنَا بِعَدهَا أَبَدًا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ عِلْمَنَا شَافِعًا نَافِعًا يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَاكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، سَدِّدْ بِهِ لِسَانَنَا، وَصَوِّبْ بِهِ آرَاءَنَا، وَثَبِّتْ بِهِ جَنَانَنَا، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الْحَقِّ حَتَّى نَلْقَاكَ وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا، غَيْرُ خَزَايَا، وَلَا مَفْتُونِينَ، وَلَا مَغِيرِينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، اللَّهُمَّ فَرِّجْ هَمَّ الْمَهْمُومِينَ، وَنَقِّسِ الْكَرْبَ عَنِ الْمَكْرُوبِينَ، وَاشْفِ مَرْضَانَا وَمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ، وَارْحَمْ مَوْتَانَا وَمَوْتَاهُمْ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَمْوَاتِ الْمُسْلِمِينَ، اغْفِرْ لَهُمْ، وَارْحَمْهُمْ، وَعَافِهِمْ، وَاعْفُ عَنْهُمْ، وَأَكْرَمْ نُزُلَهُمْ، وَأَوْسِعْ مَدْخَلَهُمْ، وَاغْسِلْهُمْ بِالماءِ وَالتَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، نَسْأَلُكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَفِي هَذَا الْمَجْلَسِ الْمُبَارَكِ وَنَحْنُ صَائِمُونَ لَوَجْهِكَ، مُبْتَغِينَ لِفَضْلِكَ، أَنْ تَرْحَمَ أَمْوَاتَ الْمُسْلِمِينَ رَحْمَةً عَامَةً تَامَةً، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذِبِينَ، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذِبِينَ، اللَّهُمَّ ارحمِ المعذِبِينَ، وَاكْشِفْ عَنْهُمْ عَذَابَهُمْ، وَأَلْطِفْ بِنَا وَبِهِمْ، يَا ارحمِ الرَّاحِمِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَحْيَاءِ، وَيَبْسِرْ أُمُورَهُمْ، وَاشْرَحْ صُدُورَهُمْ، وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ بَلَاءٍ عَافِيَةً، اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَسَدِّدْ آرَاءَهُمْ، وَسَدِّدْ سَهَامَهُمْ، وَصَوِّبْ آرَاءَهُمْ، اللَّهُمَّ اغْثُ إِخْوَانَنَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا بَغُوثٍ مِنْ عِنْدِكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْحَمَ مَوْتَاهُمْ، وَأَنْ تَشْفِيَ مَرْضَاهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَطْعَمَ جَائِعَهُمْ، وَأَنْ تَكْسُوَ عَارِيَهُمْ، وَأَنْ تَفْكَ أَسْرَاهُمْ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، يَا إِلَهَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، أَقْبَلْ شَفَاعَتَنَا لِإِخْوَانِنَا، اللَّهُمَّ انصُرْ دِينَكَ

وَكِتَابُكَ وَسَنَةَ نَبِيِّكَ وَعِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، وَأَظْهَرَ الْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لِنَفْسِكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
 بِعِزَّتِكَ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، بِعِزَّتِكَ إِلَهَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، اللَّهُمَّ وَفِّقْ وَلَاةَ أُمُورِنَا لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، وَخُذْ
 بِنَوَاصِيهِمْ لِكُلِّ بَرٍّ وَتَقْوَى اللَّهُمَّ انصُرْ بِهِمْ دِينَكَ، وَأَعْلِ بِهِمْ كَلِمَتَكَ، وَاَنْشُرْ بِهِمْ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ آمَنَّا فِي
 أَوْطَانِنَا، وَأَصْلَحْ أَمْنَتَنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا، وَاجْعَلْهُمْ هِدَاةً مُهْتَدِينَ، يَقُولُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ
 بِكَ مِنْ فِتْنِ الْمَفْتُونِينَ، وَمِنْ إِرْجَافِ الْمَرْجُفِينَ، وَإِبْطَالِ الْمَبْطُلِينَ، أَصْرَفْ عَنَّا الْفِتْنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَنَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّحِمِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا، وَإِخْوَانِنَا، وَأَخَوَاتِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَمَشَايِخِنَا،
 وَمُحِبِّينَا، وَمَنْ أَحَبَّنَا فِيكَ، وَمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَنَا، وَمَنْ غَابَ عَنَّا، وَأَحَبَّنَا فِيكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا أَجْمَعِينَ،
 وَهَبِ الْمُسِيئِينَ مِنَّا لِلْمُحْسِنِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّحِمِينَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.